عباس محمود العقاد





مذهب ذوى العاهات

عباس محمود العقاد

مذهب ذوي العاهات

اعداد
محمود العقاد

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

حاطم الاصنام

انـا حاطم الاصــــنام والقبب   ألحقت منهـــا الـرأس بالذنب
فى أمــة الألقـــاب أسـبقهم   ســـعيا بــلا نعت ولا لقب
فى أمــة الأمـــوال انشىء لى   نســـبا مــن العليـــاء والأدب
عجبا ، وقل ما شئت من عجب   انى شـــبيهك أنت فى عجبى
هب تلكم الاصـــنام واهبـــة   لى عفوهـــا يأســـا من الغضب
أتظــن عـــابدهن مغتفـــرا   صـــلواته فى غـــابر الحقب ؟

ع ٠ م ٠ العقاد

كلمة

بقلم محمود العقاد

عقب الحرب العالمية الثانية ، انتشرت موجـة عارمة من الدعـاية الشيوعية فى مصر والعالم العربى ، وكان لها فى لبنان مركز خطير توجه منه حملاتها الدعائية فى مختلف أنحاء العالم العربى .

وقد بلغ من نشاط هذا المركز أن العقاد حين أصدر كتابه القيم « فى بيتى » وهاجم فيه الفكر الشيوعى ، هب الشيوعيون فردوا عليه بعدة كتب غير المقالات والأحاديث والمنشورات .

ومنذ صدور كتاب العقاد « فى بيتى » فى سنة ١٩٤٥ ، والشيوعيون يستهدفون العقاد ويناصبونه العداء الصريح والمستتر على السواء . فاذا كتبوا هاجموه صراحة ، ومنهم من كتب فى الأدب لا لشىء الا ليقول كلمة سوء فى العقاد . ومنهم من يكتب كتابا كاملا عن الأدب أو الصحافة لمجرد أن يغفل اسم العقاد وكأنه لم يكن أديبا ولا صحفيا فى مصر فى النصف الأول من القرن العشرين .

وأذكر بهذه المناسبة واقعة طريفة حدثت فى نحو سنة ١٩٥٣ .

كتب أحد الكتاب الشيوعيين الشبان ــ فى ذلك الحين ــ مقالا عن لغة الصحافة منذ ثلاثين سنة .

ولم تجر العادة فى الدراسات أن يقال « منذ ثلاثين سنة » بل جرت العادة بالدراسة فى مائة سنة أو خمسين أو خمس وعشرين .

ولكن المقال الذى كتبه كاتبه قد بين سبب اختياره للثلاثين بدلا من الخمس والعشرين ، مع أن لغة الصحافة لم تتغير فى هذه السنوات الخمس الفارقة بين ما جرى عليه العرف وما اختاره الكاتب الأريب .

كان السبب أنه أراد الاستشهاد بما ورد فى مقال للعقاد نشر فى سنة ١٩٢٣ .

وقصة هذا المقال أن أحد خصوم العقاد كان قد كتب مقالا ، اتهم فيه العقاد بأنه يترك لزوجته حبلها على غاربها تتصرف فى وقتها كما تشاء ولا تعود الى المنزل الا عند مطلع الصباح ... الى آخر ماورد فى ذلك المقال . (١)

ولم يكن هذا الكلام كلام العقاد ، بل كان كلاما وجهه اليه خصمه ، وكان العقاد يرويه على لسان هذا الخصم تمهيدا للرد عليه ، ثم رد عليه بأنه ليست له زوجة يترك لها الحرية أو يفرض عليها القيود وأضاف الى ذلك ما رآه حقا لذلك الكاتب الخصم الذى أساء اليه كل تلك الاساءة فى سنة ١٩٢٣ .

بيد أن الكاتب الشيوعى ظن هذا كلام العقاد فاستشهد به ليطنب بعد ذلك فى السباب والتشهير بالعقاد .

فما كان من العقاد الا أن خبطه خبطة من خبطاته الهائلة حين رد عليه قائلا انه لو كان يعلم القراءة والكتابة وحسب ، لعلم من السطر التالى فى هذا المقال أن هذا الكلام هو الذى وجهه اليه خصمه وأنه يرويه على لسانه ليرد عليه .

هنالك حدثت عجيبتان :

احداهما ــ أن الكاتب الأحمر لم يحسن أدراك موقفه ، فقد كان خليقا به أن يقول ان بحثه عن لغة الصحافة فى سنة ١٩٢٣ ، وأن الاستشهاد الذى أورده يؤيده سواء أكان كاتبه العقاد أو أحد سواه .

لو فعل صاحبنا ذلك لظهر بمظهر الباحث

لكنه أغفل هذا ، وقال أن العقاد على كل حال قد قال فى بقية المقال كيت وكيت ، وقال فى مقال آخر كذا كذا .... الى آخر ما قال ، فأظهر بذلك نفسه حاملا على العقاد نفسه ، متسترا وراء ستار البحث العلمى عن لغة الصحافة سنة ١٩٢٣ .

والعجيبة الثانية ، أن شيئا يشبه سرب الذباب الراقد على كومة حين يهب طائرا مرة واحدة اذا أزعجه مزعج قد حدث بين الكتاب الحمر اذ ذاك ، وكلهم ينكر على العقــاد أن يصف ذلك الكاتب النحرير بعدم القــدرة على

---

(١) أشار الأستاذ العقاد الى هذا الموضوع فى كتابه يوميات . جزء ٢ صفحة ٧ ، ٨ .

القراءة والفهم السليم لما يقرؤه • كأنما كان من حق كاتبهم الأحمر أن لا يفهم ما يقرأ ، ولكن ليس من حق العقاد أن يقول عنه ذلك •

كان العقاد حريا اذن أن يصارع القوم وان يبين فساد دعايتهم وانحطاط مذهبهم •

وقد فعل

كتب ضد المذهب نظريا وتطبيقيا وواقعيا • كتب كتبا كثيرة ، كان هدفه منها ، كما كان يقول لنا على الدوام ، محاربة المذاهب الحقيرة الهدامة ، وأهمها كتب العبقريات وتعظيم العظماء من كل جيل وفى كل أمة وكل مجال من مجالات العظمة الانسانية •

فكتب عن محمد على جناح وغاندى وصن يات صن وشيكسبير وبرناردشو وغيرهم وغيرهم ، يقينا منه بأن أقرار العظمة للعظماء ضربة قاصمة لمذاهب الهدم والتحقير •

ولم يكتف بهذا بل عمد الى مبادىء الاسلام يشرحها شرحا عصريا جيدا يجعل المسلم يؤمن بدينه ويكون فى ايمانه هذا عصريا غير متخلف ، يقينا منه بأن فى الاسلام أكبر مصل واق من حقارة هذا المذهب الحقير •

وكتب عدة مقالات فى الصحف والمجلات ، كانت صريحة فى مقاومة هذا الداء الوبيل •

وقد أدهشنى وأنا أعيد قراءتها ، أن فيها ردودا على مساءلات تحدث اليوم ، وكأن العقاد بنفاذ بصيرته وبعد نظره كان يخترق حجب الغيب على مدى ربع قرن ليرى ما سيقول الشيوعيون فى سنة نيف وسبعين فيرد عليه ويفنده فى سنة نيف وأربعين أو نيف وخمسين •

لهذا عزمت بعون الله تعالى على نشر الفائدة من هذه المقالات بين جيل من الناس ظهر اليوم لا يعرفها ولم يسمع بها وهو حوله من صراع المذاهب والايديولوجيات •

فاذا ما أدركت الفائدة التى أرجوها وأعمد اليها ، كان ذلك مبلغ النجاح وغاية القصد المروم •

أما اذا لم أدرك كل ذلك ، فلن يخلو عملى من فائدتين أخريين ، أحداهما أننى برأت نفسى من تهمة التقصير المعيب ، والأخرى أن أحفظ تراثا للعقاد العظيم جديرا بكل حفظ وصيانة خدمة للأدب وقضية التفكير الحديث •

محمود أحمد العقاد

أسوان فى ١٥ من جمادى الآخرة سنة ١٣٩٧ هـ
٢ من يونية سنة ١٩٧٧ م

مقـــدمة

ما يزال أمر الشـــيوعية يتجدد كل يوم ، وما يزال الجدال حولها لا يخبو حينا الا احتدم أحيانا ، ولا سيما فى بلادنا العربية أو فى البلاد النامية على وجه العموم ، لأنها بلاد لم ترس سفنها الأيديولوجية على بر أو شاطىء أمان ، فهى مناطق تصطرع فيها الدعايات والأيديولوجيات ، كل منها يريد أن يستحوذ وحده على المجال ·

وفى السنوات الأخيرة أصبحنا نسمع من الشيوعية والشيوعيين نغمة جديدة فى الدعاية الشيوعية مؤداها أن لا تعارض بين الشيوعية والأديان · وأن المؤمن بدين من الأديان ، ولا سيما الاسلام ، يمكنه أن يكون شيوعيا بغير حرج ولا مخالفة لقواعد الدين ·

يقولون هذا وكأن أحدا غيرهم هو الذى صاغ الكلمة المشهورة « الدين أفيون الشعوب » ·

يقولونه وكأنما لم يكن لينين هو الذى قال فى مطلع كتابه عن « المسألة الدينية » « ان الالحاد هو الموقف الطبيعى للانسان · »

يقولونه وكأنما لم يكونوا هم القائلين على الدوام «أننا لا نريد فردوسا فى السماء · اننا نريد فردوسنا ها هنا ، على هذه الأرض · »

أخذنا نسمع هذا فى السنين الأخيرة فلم يتبادر الى أذهاننا غير شىء واحد هو أن الشيوعية تريد أن تخرج من جلدها ، أو أنها تريد أن تفعل معنا ما فعله الذئب مع قطيع الشاء والغنم ، حينما لبس جلد خروف ، وأراد أن يندس فى وسط القطيع حتى يجد فرصة ينتهزها فيفترس القطيع ، لولا أن حكماء القطيع قالوا له « فما هذه المخالب فى رجليك ؟ وما هذه الأنياب بين فكيك ؟ وانها لأشياء غير معهودة فى الشاء والغنم ؟ »

أرادوا هذا ، وما نظنهم أرادوا غيره

الا أننا لسنا قطيعا من الشاه والغنم ، ولا نراهم من الذئاب فى شىء وما وجــه الشــبه بيننا وبينهم الا شىء وحيد ، هو أنهم يريدون غفلتنا ،

ويتوقعونها منا ، فان أفلحوا فيما أرادوا فذاك ، وان لم يفلحوا فيه لم يكن عليهم من خسارة فى التجربة على كل حال ·

ولقد وجهوا نحو الاسلام بخاصة فيالق دعواهم ، وألقوا معظم تقلهم على العالم الاسلامى العربى بوجه خاص ، وعلى مصر بوجه أخص ·

لماذا ؟!

أولا : لأن أوربا الغربية قد ضعفت فيها التقاليد الدينية الى حد كبير منذ ثورة مارتن لوثر وماتلاها من انقلاب صناعى وكف لسطوة الكنسية ورجال الدين · فهم لا يجدون من الدين فى هذه البلاد من القادمة ما يجدونه فى بلاد المسلمين ·

وثانيا : لأن الاسلام دعوة لاصلاح الدنيا والآخرة ، وليس قصاراه أن يدعو لصلاح الآخرة ويعتزل الدنيا ويتركها لقيصر أو لسواه · فهو بهذا عدو ايجابى للشيوعية والشيوعيين ·

وثالثا : لأن بلاد المسلمين مفتاح لما وراءها من البلدان البكر فى أفريقيا وآسيا . فالاستيلاء عليها أيديولوجيا مجهود يستحق العناء فى سبيله لأن الكسب من ورائه شىء عظيم ·

تلك أسباب

وأظن أن هناك غيرها ، لا أستطيع الجزم بها ، منها سهولة الدعاية بين شعوبنا هذه ، لأنها لم تبلغ من النضج السياسى ما يعصمها من الاستماع الى كل كلام والاقتناع به مادام مزخرفا منمقا مزوقا يبلغ الى مكامن الاقناع ولو بغير دليل علمى سليم ·

على كل حال ، استشرت هذه الدعاية ، وراح دعاتها يقولون ما لايصح أن يقال عن الاسلام ونبى الاسلام وخلفائه وصحابته وتابعيهم من الرعيل الأول وما بعده من ذوى المكانة عند المسلمين ·

راحوا يتذرعون بمثل مأثورات « أبى ذر الغفارى » رضى الله عنه فى الأموال وسياسة المال ، وأوشكوا أن يجعلوه ـ وحاشاه ـ شيوعيا ماركسيا فى الصميم ، فى الفكر والتطبيق ·

وكذبوا ! ··

نعم كذبوا كذبا ليس مثله افتراء ولا كذاب ·

والا فانا سائلوهم وليجيبونا على ما نحن سائلون : ـ

أكان أبو ذر الغفارى يؤمن بالمادية التى تستغنى المادة فيها عن كل تفسير فضلا عن خالق يخلقها من العدم ؟!

أكان أبو ذر الغفارى يؤمن بحتمية التطور الجدلى فى المادة ، تلك الحتمية التى لا تدع لله مكانا فى تصورها السقيم ، فضلا عن أن يكون « اليه مرجع الأمر كله » ، سبحانه وتعالى عما يصفون ؟!

أكان أبو ذر الغفارى ، رضى الله عنه ، كافرا بقوله تعالى « انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » وبقوله تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ومعصية الرسول » ، مؤمنا بصراع الطبقات ؟!

أكان أبو ذر الغفارى مؤمنا بأن مصير المجتمعات الانسانية كله صائر الى انحلال الحكومات والدول والى سيادة المجتمع اللا طبقى ، كافرا بمكان ولى الأمر من الاسلام والمسلمين ؟!

اننا لا ننتظر الاجابة من الشيوعيين ، ولكننا نبادرهم بها فنقول « أن أبا ذر — رضى الله عنه — لم يكن قط على مثال ما هم مفترون عليه ٠ »

لا أبو ذر ولا غيره من المسلمين ٠

ان أبا ذر طالب أصلاح على أسس الاسلام ، رأى شيئا من القتام يرين على عيون بعض المسلمين فى زمانه وينسيهم بعض أمر دينهم ، فراح يذكرهم بما نسوه ٠

لا يبيتن فيكم جائعا رجل واحد أو امرأة ، وفى دياركم وخزائنكم فضل طعام !

لا تتكالبوا على المال لأنه زينة الحياة الدنيا ، واجعلوا همكم الثواب وفعل الخير لأنه زينة الحياة الآخرة ٠

لا تستغلوا أموالكم فى افساد أنفسكم بالترف ، وافساد غيركم بالرشوة أو بالظلم والحرمان والضغط لتسخروهم فيما تريدون بل استغلوا أموالكم فى تقوية أنفسكم على أعدائكم أعداء الدين وفى نشر العدل والانصاف ومواساة الفقير ليقوى الدين بما يفعلون ٠

ذلك ما يقوله أبو ذر وغيره من المسلمين رضوان الله عليهم أجمعين فهل يرضى شيوعى أن يقول مثل هذا القول ؟!

كان ماركس يعيب على طلاب الاصلاح الاشتراكى ويصمهم بأنهم خياليون حالمون ٠ لأنه ليس طالب اصلاح بل هو مقرر قانون علمى فى التطور الحتمى للمجتمع الانسانى ٠٠٠ وهذا نقيض ما يدعو اليه أبو ذر والمسلمون

كان الشيوعيون يثورون ضد المصلحين من حكام أوربا والداعين الى تخفيف ويلات الصناعة على الكادحين ، ويصمونهم بأنهم معوقون للثورة الشيوعية الشـــاملة ، لأن المطلوب أن يتركوا الظلم يستشرى حتى يثور المظلومون ولا يريدون تخفيف الظلم ورفع الحيف والضيم عن المظلومين

كان أبو ذر والشيوعيون طرفى نقيض

هذا طالب اصلاح وهؤلاء طلاب افساد يؤدى الى الثورة

هذا طالب تعاون بين الناس وهؤلاء طلاب صراع بين الطبقات

هذا طالب ايمان بالله الذى « اليه يرجع الأمر كله » وهؤلاء طلاب ايمان بحتمية التطور المادى للتاريخ

هذا مسلم ، وهؤلاء شيوعيون ٠

ولن يلتقى مسلم وشيوعيون ٠

★★★

أصبحنا نسمع هذا الطوفان الثقيل فى الســـنوات القليلة الماضـــية ، فذكرنا هذا بطوفان شـــبيه به فى الثقل وان لم يكن شـــبيها به فى الكنه والمضمون ، حدث منذ نحو ثلاثين سنة قبل اليوم ٠

فى ذلك الحين ، فى أواخر النصف الأول من القرن العشرين ، كان العالم يموج بموارج موارة من الدعايات ٠

كانت الحرب العالمية الثانية قد انتهت بعد أن أنهكت الانسانية كلها ، منتصريها قبل المنهزمين ٠
وكانت الروسيا السوفيتية ضمن معسكر المنتصرين

وكانت شعوبنا فى هذه المنطقة ــ التى كانت تميل بعواطفها الى الألمان النازيين ، لا حبا فى النازية بل كراهة للانجليز والاستعمار الانجليزى ــ قد استدارت بعواطفها نحو الروس ، استمرارا لكراهتها فى الانجليز ٠ فاستغل دعاة الشيوعية وعملاؤها هذا الميل لينشروا مذهبهم بين الناس ٠

استدار الناس بعواطفهم نحو الروس ناسين دورهم فى ست السنوات التى استغرقتها الحرب ، مغتفرين لهم مخالفتهم للنازيين فى مطلع الحرب واقتسامهم بولندا معهم ، ومتسامحين معهم فى تعاونهم مع البلاد الرأسمالية التى ينكرون مذاهبها فى الحكم والاصلاح ٠

وما زلنا نسمع اللوم الذى وجه لونستون تشرشل على تحالفه مع الروس ، ورده بأنه مستعد للتحالف مع الشيطان فى سبيل دحر النازيين وليت شعرى ، لم يلام تشرشل ولا يلام ستالين على تحالفه معه ؟!

أن الروسيا فى أيديولوجية تشرشل دولة من الدول يمكن التحالف والتخالف معها ، ولكن انجلترا فى الأيديولوجية الشيوعية ، بلد رأسمالى يجب القضاء على نظامه قبل القضاء على نظام النازيين · ومع هذا لم يستنكر أحد على ستالين تحالفه مع الانجليز ·

نسى الناس للروس ذلك

ونسوا لهم ، أو تسامحوا معهم مغتفرين متسامحين ، أن يبشروا بالوطنية التى أنكروها ، وبالحماسة الدينية التى عصفوا بها ، وبعاطفة الأسرة وسائر القيم التى سموها أحابيل البورجوازية لتضليل الكادحين عن مصالحهم الحقيقية فى هذا الصراع الرهيب بين الطبقات ·

نسى الناس ذلك ومالوا بعواطفهم نحو الروس كراهة فى الانجليز ، فاندلعت الدعاية الشيوعية متأججة كنيران الحريق ، واستهدفت طبقات من الناس ، تنشر بينهم آراءها ومذاهبها كل فئة منهم بما يصلح لها ، ولو كان ما يقال لفئة مناقضا لما يقال لفئة أخرى سواها على خط مستقيم ·

هنالك تصدى لهم العقاد

ولكن ، لماذا يتصدى لهم العقاد ؟! سؤال كثيرا ما دار فى أخلاد الناس من الشيوعيين وغير الشيوعيين ·

يقولون ان العقاد فقير من طبقة فقيرة هى طبقة صغار الموظفين ، فالشيوعية ــ على زعمهم ــ فى صفه وليست ضده ·

ويقولون أن العقاد كاتب الشعب والجماهير منذ ثورة ١٩١٩ فهو اذن حليف الشيوعية لا عدوها المناهض اللدود ·

ويقولون أن العقاد فيلسوف متحرر ، قال فى مطلع حياته من الأدب المنشور ما يتمنى الشيوعيون أن يقولوه ، ولا سيما ما ورد فى كتابيه « خلاصة اليومية » و « الفصول »

قالوا هذا واتفقوا عليه ، ثم اختلفوا على التفسير ، فظن الشيوعيون أن عداءه لهم كان ردة منه عن مذهبه وموقفه ، وبيعا لضميره لمن يدفع له الثمن من الاقطاعيين والبورجوازيين والرأسماليين ·

فان سألتهم من هم هؤلاء الذين اشتروه ، خرجوا من السؤال والجواب واستقراء الواقع الفعلى الى كلام خيالى ككلام ضحايا المهلكات من كوكايين وهورايين ، حيث يقولون « ان هذه نتيجة لازمة لزوم الضرورات المنطقية ، ولو جهلنا الواقع الذى يؤيدها • »

أما غير الشيوعيين ، فما يزالون حائرين لا يدرون •

لهؤلاء الحائرين نوجه قولنا بالتفسير الصحيح •

لم يكن العقاد شيوعيا ، ولا كان مهادنا للشيوعية ، بل كان عدوا مناهضا صوالا جوالا ضدها لأسباب وأسباب •

كان ضدها لأنه مسلم

وكان ضدها لأنه وطنى

وكان ضدها لأنه مصلح يبتغى الاصلاح

وكان ضدها لأنه حر يؤمن بالحرية لنفسه ولكل الناس

وكان ضدها لأنه اشتراكى

فأما أنه مسلم ووطنى وطالب اصلاح ، فقد سبق أنبينا التناقض بين الشيوعية وبين هؤلاء •

وأما ما يثير العجب عند البعض فهو أن يكون هناك تناقض بين الأحرار والاشتراكيين . ولا سيما الأحرار الاشتراكيين ، وبين الشيوعيين •

نعم ، ان التناقض تام كامل بين الحرية والاشتراكية من جهة وبين الشيوعية من جهة أخرى •

ولسنا نطيل القول ، فتعريف الحرية عند الشيوعيين هو « دكتاتورية الطبقة » •

هذا اعتراف صريح بأن المذهب دكتاتورى ، وأنه لا يعترف بالفرد بل بالطبقة ، وأن الحرية الحقيقية ليست هى تلك الحيلة البورجوازية التى يسميها الرأسماليون بالحرية الفردية ، بل هى أن لا تكون فى الدنيا الا طبقة واحدة هى طبقة الأجراء الكادحين الخاضعين لنظام طبقتهم المتسلطة عليهم وعلى مصائرهم أجمعين •

وأما أنها ضد الاشتراكية فلأنها مذهب رأسمالى •

نعم هى مذهب رأسمالى لا اشتراكى •

هذه القضية تحتاج الى بيان ، واننا هنا مبينوه •

فالاشتراكية — على مختلف مذاهبها الكثيرة — تتفق فى مبدأ أو مبادىء

محددة ، كلها من قبيل الانسانية التى يحبذها المصلحون · هذا المبدأ الرئيسى هو أن يؤخذ من الغنى ليعطى الفقير ، بشرط واحد هو أن يبذل الفقير قصارى طاقته للكسب ثم يعان على العيش الكريم فيما وراء ذلك ولا يسمح له بالتكاسل و « التنبلة » ليأكل من مجهود الآخرين ·

وتختلف المذاهب الاشتراكى فى السبل والكيفيات المؤدية الى هذا الهدف · فمنها ما يلجأ الى الضرائب يأخذها من الموسرين الكاسبين ليقدم بها خدمات للمعسرين فى التعليم والصحة وما شابه ذلك من الخدمات · ومنها ما يجعل الحكومة عاملا اقتصاديا للتصحيح ، حين تدخل السوق مشتريه أو بائعة أو منتجة أو خادمة ، لكى تقضى على موجة بطالة مثلا أو تكف من شر احتكار ما · ومنها ما يرى أن الاشتراكية التعاونية التى تبتعد عن الحكومة وتبعد الحكومة عن مجال النشاط الاقتصادى للمجتمع هى الوسيلة الناجعة والناجحة فى تحقيق هذا الهدف المنشود ·

وغير هذه أشكال أخرى وأنماط

أما الشيوعية فليست من ذلك فى شىء قط ·

الشيوعية ــ اذا أخذنا بالنظرية دون التطبيق ــ ترى أن الرأسمالية معناها ملكية أدوات الانتاج ، على زعم من زعم أن الآلة والخامة والمبنى الذى يضم المصنع والمخزن والمكتب هى رأس المال · فيكون مالك هذه الأشياء هو الرأسمالى ، ومجموع ملاكها فى النظام الحالى للصناعة هم طبقة الرأسماليين الذين تجمعهم مصالح مشتركة تناقض مصالح العمال الأجراء الذين يعملون فى مصانعهم ·

هذه الرأسمالية يجب أن لا تبقى فى أيدى هذه الطبقة ، ومتى تم النصر للطبقة العمالية على البورجوازية فى صراعها الطبقى ، الت هذه الملكية الرأسمالية للطبقة فصارت هى الرأسمالى الوحيد ·

الشيوعية اذن رأسمالية الطبقة

نعم ، لتكن رأسمالية الطبقة لا الأفراد ، لتكن عادلة فى توزيع الانتاج على العمال لأنها لا مصلحة لها فى نهب جزء منه فى صورة فائض القيمة الذى يدعون ، ولتكن ما شاءت ، الا انها رأسمالية ، ولن يغير من جوهرها الرأسمالى وصبغتها الرأسمالية شىء ·

يقول لنا المنطق ان « رأسمالية الطبقة رأسمالية » قضية تحليلية من قبيل تحصيل الحاصل ، تحمل صدقها فى ذاتها على أساس أن « الشىء هو

نفسه » أو أن « أ هى أ » · وأنها تكون كاذبة اذا أنا وصفت الشىء بأنه غير ذاته ، كأن أقول مع الدعاة الشيوعيين « ان رأسمالية الطبقة اشتراكية » ، فهذا اعاء كاذب يشبه أن أقول ان « العنب الطازج عنب ، ولكن العنب الحامض مشمش أو رمان » ·..

هذا اذا اخذنا بالنظرية دون التطبيق

أما لو اخذنا بالتطبيق فكل الفارق هو أن الشيوعية عند مطبقيها هى ملكية الدولة لوسائل الانتاج ، أى أن الدولة هى الرأسمالى الوحيد ، وذلك الى أن يتم النصر العالمى للطبقة الدنيا فى صراع الطبقات ، اذ عندهم أن الشيوعية مرحلتان ، المرحلة الحالية وهى مرحلة دكتاتورية الدولة ، ورأسمالية الدولة ، والمرحلة الأخيرة بعد النصر الأخير وهى دكتاتورية الطبقة ورأسماليتها ·

اذن فهى رأسمالية الدولة · وما يقال فى سابقتها يقال فيها لأن رأسمالية الدولة لن تكون شيئا آخر سوى الرأسمالية ، وكل الفرق بينها وبين رأسمالية الشركات والموثقات أن هذه رأسمالية الوزارات والمؤسسات ·

فاذا ما عدنا لنأخذ بالتطبيق الفعلى الذى كان ، لوجدنا مصداق ما نقول فى كل البلاد التى أخذت بالشيوعية أو اخذت بها رغم أنفها · دكتاتورية رأسمالية ، دكتاتورها رأس الحكومة ، ورأسماليوها هم المنتفعون معه ممن يستهلكون ولا ينتجون ·

ذلك هو جوهر الشيوعية
وجوهر العقاد كما نعلم ضد هذه الأقانيم جميعا ، وضدها المناهض لها بكل شراسة القتال وعنف الصراع ·
ذلك هو السبب فى عدائه للشيوعية ·

★★★

تصدى لهم العقاد فى ذلك الحين منذ ثلاثين سنة أو نحوها ، وكان العقاد كالمعهود منه علما مستغرقا لعالم المقال ، ومنطقا بينا جليا لا يقبل المجادلة الكثيرة ، وفنا رائعا فى عرض القضية وتفنيدها ، وأدبا قل نظيره فى الأدباء القدامى والمحدثين ·

توجه الى فئات الناس من العمال والطلبة والمحامين ونحوهم ليصارع دعاة الشيوعية فى ميدان دعايتهم ·
وتوجه للأرذال الشرهين من الرأسماليين يقول لهم تخلصوا من بعض عبائكم وقابلوا الفقراء فى منتصف الطريق ·

وتوجه لمريدى المعرفة يشرح لهم ويبين ما غمض عليهم من أمر هذا المذهب الهدام الدخيل ٠

وانك لتقرأ ما كان يقوله فى أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات من هذا القرن ، فيخيل اليك أنه ما يزال على قيد الحياة يعيش معنا ويدلى بدلوه فى مشكلاتنا الحاضرة التى نمارسها فى كل يوم ٠

وحسنا فعل ابن أخيه الأستاذ محمود أحمد العقاد اذ أعاد نشر هذه المقالات التى تناثرت فى الصحف ، لكى بضمنها دفتى كتاب ، نرجو الله أن يكون كتابا أو كتيبة فى حزب الله ، تندحر أمامها الكتائب جميعها من حزب الشيطان والله الموفق لما يحبه ويرضاه ، هو نعم المولى ونعم النصير ٠

أحمد ابراهيم الشريف

القاهرة فى ٢٣ من جمادى الأولى ١٣٩٧
١١ من مايو ١٩٧٧

اللغز الاحمر

كان لغزا أحمر حقا ذلك اللغز الذى واجهه النازيون يوم أقدموا على الغزوة الروسية ·

كان أحمر قانيا مشبعا بالاحمرار لأنه اصطبغ بدماء الملايين ، لا لأنه ينتمى الى الروسيا الحمراء وكفى ·

فقد واجه النازيون ألغازا كثيرة فى هذه الحرب العالمية ، وقد كان جهلهم بهـا وبالا عليهم لانهم جهلوا ما يحـاربون فلم يستعدوا لـه بعدته الوافية ، وليس أخطر على الخصم من أن يجهل خصمه فى ميدان نضال ، لأن الاستعداد لكل عدو يستلزم العلم بما عنده وان صغر شأنه ، فكيف بالعدو الخطير ؟

ولكننا لا نحسبهم جهلوا من الألغاز التى قضت عليهم شـيئا كمـا جهلوا ذلك اللغز الأحمر ، أو لغز روسيا الحمراء ·

جهلوا قدرتها على المقاومة ، وجهلوا قدرة العـالم على مقـاومتها ، فبالغوا فى الاستخفاف بها وبالغوا فى تخويف العالم منها ، وحاقت بـهم جريرة المبالغة فى الحالتين ·

وقع فى حسبانهم ان الدولة الروسية لا تصمد لغير الهجمة الأولى ثم تتداعى من داخلها ·

ووقع فى حسبانهم أنهم يخيفون العالم بخطر الشيوعية فيقبل منهم المساومة على كل شىء ويغضى لهم عن كل جريرة ، ويستكين لهم كما يستكين الطفل لمن يتوعده بالبعبع أو بالغول ، وبنوا على كل ذلك حسـابا طـويلا عريضا لم يصدق منه كثير ولا قليل ·

وليست الغلطة فى كلتا الحالتين من غلطات التمرينات المدرسية التى تفرق نمرة هنا أو نمرة هناك ، ولكنها الغلطة التى تزول بها دول وتشقى بها شعوب ·

ان الشيوعية مذهب غير قابل للتنفيذ فى نطاق واسع ولا الى زمن بعيد ·

ولكن ما معنى هذه الحقيقة التى لا شك فيها ؟ ·

معناها المحقق أن الشيوعية تتحول شيئا فشيئا عن مبادئها الأولى ، وأنها تخفق اذا هى حاولت أن ترغم الأمم على قبولها ·

روز اليوسف ١٠/٥/١٩٤٥ ·

هذه هى النتيجة المعقولة لأخطاء المبادىء الشيوعية ، وقد ظهرت بوادر هذه النتيجة فرأينا الشيوعيين يتحولون عن مبادئهم الكبرى فى مسألة الملكية ومسألة الاسرة ومسألة الدين ومسألة الميراث وغيرها من القواعد الأساسية التى قامت عليها الدعوة الماركسية ·

كذلك ظهرت بوادر هذه النتيجة فى الغاء الدولية الثالثة وعدول الحكومة الروسية عن الدعوة الصريحة الى المذهب الماركسى فى البلاد الخارجية · أما أن الشيوعيين يثورون على حكوماتهم لأن المبادىء الماركسية خاطئة فهو شىء آخر لا موجب لافتراضه ولا لتقديره ، بل هناك موجبات كثيرة للشك فيه ان لم نقل للجزم ببطلانه ·

فالشيوعيون لا يؤمنون بخطأ الماركسية ولا برجحان المذاهب الأخرى الموروثة ، فهم يثورون للدفاع عنها ولا يثورون لهدمها والانتفاض عليها ، وكل من يحمل السلاح فى روسيا فهو رجل بين السادسة عشرة والخامسة والاربعين الا فى النادر القليل ، ومن بلغ الخامسة والاربعين اليوم لم يكن يتجاوز السابعة عشرة يوم قامت الحكومة الحمراء فى روسيا قبل ثمان وعشرين سنة على أعقاب الحرب العالمية الماضية ، ومن لم يبلغها فهو وليد فى ظل الحكومة الحمراء أو ناشىء على يديها ، ومعنى ذلك أنهم نظروا الى الدنيا فلم ينظروا فيها شيئا غير الشيوعية ولم يسمعوا غير الاشادة بفضلها والزراية على المذاهب الأخرى ، ولم يتسع لهم المجال قط للموازنة بينها وبين تلك المذاهب ثم تفضيل تلك المذاهب عليها ·

فليس أحمق ممن يخطر على باله أن هؤلاء جميعا يثورون على حكومتهم وينصرون العدو الأجنبى عليها ، ولا سيما اذا كان ذلك العدو قديم العداوة للجنس السلافى كله ، وكان هو المغير المعتدى فى هذه المرة بغير سبب واضح أو معذرة معقولة ، ولم يعرف عن الروسيين قط أنهم جبناء فى حروب الدفاع عن الوطن المهدد ، وان كانوا لا يشعرون بالحماسة القوية فى حروب الهجوم ·

★★★

ولم يجهل هتلر قدرة « اللغز الأحمر » على المقاومة وكفى ·

ولكنه قد جهل قدرة الأمم الديمقراطية على مقاومة الشيوعية بوسائلها التى لا تحسنها الحكومات النازية ·

والواقع أن تهويل هتلر « بالبعبع الأحمر » على الأمم الديمقراطية لن يفسر فى باطنه لأمر واحد ·

لقد بلغ من ايمانه بهول هذا « البعبع » أنه توهم أن رسوله « هس » لا يلبث أن ينزل بالجزر البريطانية ويعرض على أهلها عزم النازيين على محاربة روسيا الحمراء حتى ينسوا خطره ولا يذكروا شيئا غير ذلك الخطر الأحمر الذى ترتعد له الفرائض وتزيغ الأبصار ·

ورسخت فى ذهنه الكليل وأذهان أعوانه المخبولين هذه العقيدة حتى خيل الى « هيملر » فى اللحظة الأخيرة أن الأمم الديمقراطية تصافحه وتصالحه اذا رفع لها شبح « البعبع » من جديد بعد أن وصل البعبع الى برلين ·

لم كل هذا الايمان بهول الشيوعية وخطرها ؟

انه يخافها كل هذا الخوف لأنه يعلم أن وسائله فى مقاومتها كاذبة خادعة ، وانه لم يصنع شيئا يعصمه منها ويحول بينها وبين النجاح فى بلاده متى وصلت اليها ·

لأن وسيلة النازيين الى علاج مشكلة العمال العاطلين كانت حيلة عاجزة وخيمة العاقبة لا يعيى بها أحد من الناس حيثما أرادها ·

كانت وسيلتهم كلها فى علاج مشكلة البطالة تشغيل العمال فى مصانع السلاح · وبلغ من سخف بعض الناس يومئذ أنهم ضربوا المثل بهذه البراعة للأمم الديمقراطية ، كأنها كانت تعيى بها ولا تستطيعها ·

مع أن الديمقراطية قد شغلت فى مصانع الحرب عشرة أضعاف أولئك العمال الألمانيين والايطاليين حين أدارت مصانعها على السلاح والذخيرة ·

فليست هى معجزة نازية أو فاشية ولكنها حيلة عجز وحيلة ميسورة لكل من يريد ، ولم يطل بها الزمن حتى تبين للعالم كله أن النازيين والفاشيين قد أعطوا العمال موتا زؤاما ولم يعطوهم عملا يعيشون به أو يعيش به أبناؤهم من بعدهم ، وأنهم خربوا بلادهم وسفكوا دماءهم ونشروا البطالة والعوز بين كبارهم وصغارهم من جراء ذلك التدبير العقيم ··· بل الوخيم الذى يلد الفقر والمرض والموت والبوار ·

ولا نقول ذلك اليوم لأن الخاتمة قد ظهرت للعيان ظهورا لا يقبل الشك والجدال ، ولكننا قلناه قبل نشوب الحرب وبعد نشوبها ، وكررناه فى كتاب هتلر فى الميزان (١) يوم كان هتلر يقتحم المعاقل ويجترف السدود ويلقى التصفيق والتهليل من السخفاء والمغفلين وهم فى هذه الدنيا غير قليلين ·

---

(١) كتاب للمؤلف صدر سنة ١٩٣٩ ·

فكتبنا يومئذ نقول فى صفحة ١٨٢ :

« وجلية الأمر أن النازيين عالجوا البطالة بتشغيل العاطلين جنودا فى الجيش ، ورقباء فى ديوان الجاسوسية ، وعمالا فى مصانع السلاح والذخيرة ، ونزلاء فى معسكرات الاعتقال ، وأجراء بأنصاف أجور وأرباع أجور ، وكل علاج من هذه العلاجات يؤدى الى كارثة مطبقة تهون الى جانبها كارثة البطالة ... لأن تشغيل المصانع بالسلاح والذخيرة لا بد أن يقف أو يدوم ، فان وقف فهناك صدمة الركود المفاجىء وكارثة البطالة من جديد ، وان دام فهناك دوام الكساد ورخص العملة وضرورة البحث عن مصرف للسلاح فى القتال والتخريب ... »

ثم قلنا بعد صفحتين :

« وهكذا مشكلة البطالة مثلا فى البلاد الديمقراطية ، فان هذه البلاد لم تحسم داءها حتى الساعة ، ولا تزال تعالجها بالاعانات تارة وانشاء أعمال الاصلاح والتعمير تارة أخرى ، الى ما شابه ذلك من المسكنات والملطفات ، ولكنها مسكنات الطب وليست بمسكنات الشعوذة ، ثم هى حيرة سليمة المغبة وليست بدواء كاذب يخلق الى جانبه عدة أدواء .... »

فالنازيون كانوا يهولون « بالبعبع » الأحمر كل ذلك التهويل لأنهم يعلمون عجزهم عن مقاومته وتدجيلهم الوخيم فى علاج مشكلة البطالة .

لكن الديقراطية تعالج تلك المشكلة كما أسلفنا معالجة الأطباء لا معالجة المشعوذين ، وتستطيع أن تقاوم الشيوعية بالتدبير السليم الموثوق به حين يرجف منها النازيون فيخوفون بها الناس كما يخافون .

لقد كان اللغز الأحمر أخطر على القوم من لغز أبى الهول الذى قيل فى أساطير الأقدمين أنه يقتل من يعجزون عن فهمه وحله بضربة ماضية .

وقد أخطأوا فهمه وأخطأوا حله فهلكوا ، وانها لعبرة عالمية كبرى تستحق من أقلامنا وعقولنا وقفة طويلة بل وقفات جد طوال . لأننا نريد أن يذكر أبناء الشرق دائما هذه العبرة البالغة ، فلا تغرهم المذاهب الدكتاتورية وهى تغلط الغلطة الواحدة فى رأس واحد من رؤوسها فتعصف بجهود الملايين ، ولأننا من الجانب الآخر نواجه مشكلات كثيرة فى المستقبل القريب ...

فلنكن على حذر ـ أشد الحذر ـ من علاج الشعوذة والتدجيل . فهو علاج ميسر لمن شاء ولكنه يميت المريض ولا يغنى عن الأطباء .

الشيوعية ·· عقيدة ونبوءة

بين كل ألف يتكلمون عن الشيوعية لا تجد أكثر من عشرة يعـرفون شيئا عنها ولا تجد أكثر من واحد يفهمها على حقيقتها أو ما يقرب من حقيقتها وربما كانت المبالغة فى هذا القول الى جانب الزيادة لا الى جانب النقصان ·

فالقول الشـائع على الألسنة ان الشيوعية برنامج اصلاحى لتحسين أحوال الطبقة الفقيرة ، سواء كان هذا البرنامج على هدى أو على ضلال ولكن الواقع ان الاصلاح الاجتماعى فى الشيوعية مسألة ثانوية تأتى فى عرض الطريق ولا تأتى على سبيل التوكيد والتحقيق ·

أما الشيوعية فى حقيقتها فهى عقيدة ونبوءة ، ولا يهمها الاصلاح كما يهمها تقرير تلك العقيدة وتحقيق تلك النبوءة ، ولو شقى بهما الناس ·

فالعقيدة الشيوعية هى انكار كل شىء فى الوجود غير المادة والماديات، فليس للوجود عقل مدبر ولا روح ملهم ، ولكنه مادة فى مادة ، ومن مـادة الى مادة ، بين الأزل والأبد بغير ابتداء ولا انتهاء ·

وقد اهتم ماركس وانجلز وغيرهما باثبات هذه الدعوى قبل أهتمامهم بأى اصلاح وأى تحسين فى أحوال الطبقات ·

ولهذا سمى مذهبهم بالفلسفة المـادية الجـدلية أو الثنائية وانصرفت جهودهم قبل كل شىء الى التفسير المادى للتاريخ ·

فالاديان كلها ان هى الا حبالة منصوبة لتغليب مصالح الأغنياء على مصالح الفقراء ·

وهذا مع العلم بأن الأديان جميعا تتضمن من النواهى للأغنياء أضعاف ما تتضمن من النواهى للفقراء ؟ ··

والفنون الجميلة وما احتوته من الآداب والبدائع ليسـت الا تمثيـلا اقتصاديا لأهواء الطبقة الغالبة فى المجتمع ، بقوة الاستغلال ·

والأخلاق الانسانية كذلك لم تتولد من شىء غير ما يسمونه بنظـام الانتاج على حسب اختلاف العهود ·

أخبار اليوم ١٩٤٦/٧/٢٧ ·

وهكذا تصبح الحياة الانسانية كلها فى عرف هذا المذهب « مناورة» بورصة أو لعبة سماسرة لا أكثر ولا أقل فى هذه السوق السوداء التى تسمى تارة بالكون وتارة بالوجود ٠

هذه هى العقيدة ٠

أما النبوءة فهى أن حرب الطبقات بين أصحاب الأموال والعمال ستنتهى الى بقاء طبقة واحدة وزوال جميع الطبقات الأخرى ، ولا تتحقق نبوءة كارل ماركس الا على هذا الوضع دون سواه ٠

فلو وجد كل صانع فى الأرض عمله ورزقه الذى يغنيه لما رضى الشيوعيون ولا عدلوا عن الثورة وقلب جميع الأوضاع ، لأن المهم عندهم هو تحقيق تلك النبوءة لا تحقيق الاصلاح وتدبير العمل لكل قادر عليه ٠

ولهذا يهونون كل اصلاح ويتهمون كل برنامج ولا يقنعون بما دون هذه الغاية بحال ، وهى زوال الطبقات وبقاء طبقة واحدة تستمر هكذا الى آخر الزمان ٠

ولو عاش « كارل ماركس » لرأى بعينيه أن زوال الطبقات مستحيل ولو بذلت الحكومات فى سبيله كل مجهود ٠

فان روسيا الشيوعية نفسها مضت عليها بضع سنوات فأصبح فيها ثلاث طبقات تتفاوت فى المعيشة والسيادة والنفوذ ، فهناك طبقة القادة وكبار الموظفين ومديرى المصانع والدواوين ، وهناك طبقة الفنيين المشهورين باسم « الستخانوفيين » نسبة الى « الكسى ستخانوف » الذى ابتكر الطريقة المعروفة باسمه لزيادة الانتاج ، وهناك طبقة الصناع الفقراء وهم يتناولون بطاقات للطعام والكساء والسكن غير بطاقات هؤلاء وهؤلاء ٠

فبينما يأكل السادة الكافيار واللحوم والحلوى ويركبون السيارات ويسكنون القصور ، يعيش « المسخرون » عيشة الكفاف ويخضعون فى سكنهم واقامتهم لأوامر الرئيس الذى يوجههم فى العمل والمعيشة كما يشاء ، ويحرم عليهم الاحتجاج والاضراب لأنه يعاقب كما تعاقب خيانة الدولة بأقسى عقاب ٠

وليس أدل على حقيقة الحالة التى وصلت اليها تجربة الشيوعية فى روسيا من هذه الحواجز التى تقام حول البلاد الروسية وحول كل قطر من الأقطار يدخل فى حوزتها ٠

فمما لا شك فيه أن النجاح لا يتوارى عن الانظار ولا يجب أن يتوارى عنها ٠٠٠ وحسبه أن يظهر للناس فاذا هم مقبلون عليه آخذون بقدوته ، فى غير حاجة الى دعاية ولا ترغيب ولا اقناع ٠

ومنذ أيام كنا نتذاكر حديث المذاهب الاجتماعية مع بعض الزمـلاء في مجلس الشيوخ فقلت : انني لا أقترح على الحكومة غير طريقة واحـدة لمقاومة الشيوعية تغنيها عن كل طريقة ، وهي ايفاد ألف مصري من مختلف الطبقات والأعمار الى البلاد الروسية • فاذا قبلتهم الحكومة الســوفيتية شهدوا الأمور بأعينهم وعادوا الى شعوب الشرق بمقطع الحق المبين في هذه الدعايات والأوهام ، واذا رفضتهم علم الشرقيون جميعا أن التجربة تحتاج الى الستر ولا تحتمل الظهور وأن كل ما يقال عن نجاحها تغرير بالعقول ومناقضة للعيان •

★★★

ومن تصوير الشيوعية على غير حقيقتها أن يقال أن الحجر عليهـــا مخالف لمبادىء الديمقراطية •

فان الشيوعية في دور العمل مؤامرة تنفذ وليست برأى ينشر في حدود الحرية المباحة •

لان أقوال كارل ماركس وأتباعه صريحة في ان العمل للشيوعية هـــو العمل للثورة الدموية ، وأن الشيوعيين يجب أن يتعجلوا الثورة قبل أوانها اذا تأخر هذا الأوان لتأخر الأطوار الصناعية في بعض البلاد •

فالصبر على الشــيوعية اذن هو صبر على جريمة في دور التنفيذ واهمال لجميع القوانين ، وليس من الديمقراطية أن تترك الجرائم تحت سمع الحـكومات وبصرها الى ان تعصف بالحـكومة وبالمجتمع وبالشرائع كلها على السواء •

هذه خلاصة موجزة لحقيقة الشيوعية ، فهي مادية خانقة ونبوءة كاذبة ولا شأن لها بالاصلاح الاجتماعي المزعوم الا في عرض الطريق •

واذا كان اقفال الأبواب على روسيا الشيوعية دليلا محسوسا على حقيقتها فهناك دليل محسوس على روحها لا يقل عن هذا الدليل في الوضوح والثبوت •

ففي عهد الاستبداد القيصري نبغ في روســيا عشرات من الكتـاب والادبـــاء العــالميين أمثـال تولســتوي ودستيفسكي وترجنيف وشيخوف وارتزيباشف وجوركي وبوشكين وجوجول واخوان هذا الطراز •

فأين هو الأديب العالمي الذي نبغ في ظل الشيوعية مع كثرة الكتب التي يطبعونها هناك ؟ •

لقد نبغ بعض الأدباء الشيوعيين نبوغا محليا لا يستحق الشهرة فى أرجاء العالم . فانتحر اثنان من أكبرهم وهما مياكوفسكى ويسنين ومات امامهم اسكندر بلوك ميتة مشتبها فيها ... وهو فى ضحوة الشباب .

ومعنى ذلك أن ظل الشيوعية المادى أشد خنقا لروح الأمة من استبداد القياصرة ، على الرغم من كثرة القراءة ووفرة المطبوعات .

وموضع العجب عند بعض الناس أن يوجد بين الشيوعيين صهيونيون أصحاب ملايين . وانما يعجب المتعجب من هذا لاعتقاده أن الشيوعية والثروة المالية ضدان لا يجتمعان .

ولكن الواقع أن اشتغال الصهيونى صاحب الملايين بالدعوة الشيوعية مسألة طبيعية معقولة ليس فيها موضع للعجب على وجه من الوجوه .

فالشيوعية تريح الصهيونيين من أكبر العقبات التى تحول بينه وبين السيادة على العالم وهى عقبة الأديان وعقبة الأوطان .

والصهيونيون لا يصدقون فى دخيلة نفوسهم أن الشيوعية تقضى على سلطان الأموال ولا على الحيل الاقتصادية ، فاذا استراحوا من مقاومة الأديان لهم ووقوف الأوطان فى وجوههم لم يبق بعد ذلك حائل بينهم وبين السيادة على العالم عن طريق الحيل الاقتصادية واللعب بالصفقات بين الشعوب .

ومتى اضفنا الى ذلك أن الصهيونى الشيوعى لا ينفق من ماله بل ينفق من مال غيره ويستفيد كما يستفيد الوسيط الماهر بين الأخذ والعطاء فقد زال العجب كله وأصبحت الشيوعية نوعا من الصفقات التى تدر المكسب الجزيل على طلاب الارباح .

على أنك تلقى نظرة واحدة الى الصهيونى الذى ينشر الشيوعية فى مصر والشرق فتعلم أنه فريسة لعلة نفسية تدفعه الى هذه الحركة وان لم تدفعه اليها سليقة السمسرة وعقيدة الصهيونية .

فهو من الخلائق المهزولة الممسوخة التى تشعر أبدا « بمركب النقص » ولا تستمرىء الحياة الطبيعية كما يستمرئها الأصحاء ذوو الخلق السوى والفطرة المستقيمة ، وأمثال هؤلاء يطلبون تعويض النقص وينقمون على كل موجود ، وتستهويهم كل حركة تفسد الجو وتعجل بالهدم والانقلاب .

ويندر أن ترى شيوعيا لا ينطوى على مركب النقص ودخيلة الحقد

والكراهية ، فأنهم ينبعثون فى حركتهم عن كراهة للأقوياء والاغنياء لا عن محبة للضعفاء والفقراء ، وحسبك أن تعرفهم فى حياتهم الشخصية لتعرف أنهم لا يدعون الى خير ولا يهتمون بخير ، وان مستقبل النوع الانسانى عندهم لا يساوى شيئا اذا اشتفت صدورهم من الحسد وشبعوا من شهوة الهدم والتخريب ·

فمن أراد أن يضع الشيوعية الماركسية فى موضعها الصحيح فليضعها الى جانب النبوءات والعقائد ولا يحسبها مع المذاهب الفلسفية وبرامج الاصلاح ·

ولكنها نبوءة كاذبة وعقيدة لا تشرف الانسان ··· لأنها تعتمد على أخس ما فيه وهو الحسد والشر وانكار كل شيء فى الحياة غير ضرورات المادة ومطالب الحيوان ·

ولو ظهرت عقيدة بين البهائم العجماء لما كانت أقل من هذه العقيدة « الوسخة » لا فى المقاصد ولا فى الأصول ·

الى المتعــلمين

من تزوير الشيوعيين أنهم يخاطبون كل فئة من الناس بالاسم الذى يروق تلك الفئة ويناسب معلوماتها ٠

فهم يتسمون باسم « التقدميين » اذا خاطبوا طوائف الشبان المتعلمين، لان الشاب المتعلم تستهويه كلمة التقدم وتعجبه دعوة الارتقاء ٠

أمــا الحقيقة العلمية التى يقوم عليها الدليــل من الواقع ، فهى أن الشيوعية أسوأ مظاهر الرجعية بالنسبة الى الانسان ، ســواء نظرنا الى الماضى أو نظرنا الى المستقبل الذى يبشر به الشيوعيون ٠

فاذا نظرنا الى الماضى فليس فى المذاهب الفكرية مذهب يرجع بالانسان الى نكسة أحط وأبعد من نكسة هذا المذهب الوضيع ٠

فليس فى الشيوعية عقيدة واحدة لا تصلح لأن يدين بهــا الحيوان الأعجم ، ان كان للحيوان الأعجم نصيب من الاعتقاد أو تكوين الآراء ٠

لأن الحيوان يستطيع أن يؤمن بان الحياة لها « علف » وحظيرة ، وأنه لا حاجة فيها الى الاسرة ولا الى الوطن ولا الى الدين ولا الى ناموس للاخلاق ولا الى تفاوت بين الاقدار ٠

لا مانع عند بقرة من البقرات تؤمن بها « التقدم » المزعــوم لأنه لا يتطلب منها أن ترتقى خطوة واحدة وراء منزلة البقر السائم ، وقد تنحدر عن هذه المنزلة درجات الى ما دون درجة « الفقاريات » ولا يمتنع عليها بعد هذا الانحدار أن تؤمن بكل ما يؤمن به الشيوعيون !

أما اذا نظرنا الى المستقبل فليس فى مذاهب العقول مذهب أشد انكارا للتطور من الشيوعية ، لانهــا تنادى بأن الشيوعية هى نهــاية التطور فى الاجتماع البشرى فلا يزال الناس بعدها ألوف السنين ، بل ملايين السنين ، وهم واقفون عند هذا الطور بغير حساب لعوامل النفوس ودوافع الحياة ٠

واذا اقتربنا من الماضى القريب ولم نذهب بالرجعية الى مرتبة الحيوان، فالشيوعيون لا يسمحون لعقل من العقول أن يكشف حقيقة جديدة تخالف « الوحى الأخير » الذى تنزل على عقل كارل ماركس فى أواسط القرن التاسع عشر ٠

أشرنا فى مقال سابق اشارة موجزة الى مؤتمر علم التوليد الذى اجتمع فى لننجراد سنة ١٩٣٢ وقرر أن تجارب علم التوليد وتطعيم النبات ينبغى أن توافق قواعد المادية الثنائية ، التى قررها كارل ماركس وختم بها علم الانسان الى نهاية الزمان ٠

وفى كل بلد تختلف أراء العلماء وتنطلق الحرية لهم فى البحوث العلمية يتقدمون فيها مع تقدم العلم ووسائل الاختبار ·

لكن العالم الذى يهديه البحث فى روسيا الى كشف علمى يخالف مذهب كارل ماركس جزاؤه الموت أو النفى أو الاعتقال ·

وهكذا كان جزاء « فايلوف » فانه حكم عليه بالاعدام ، وجزاء ليفتسكى استاذ علم الخلايا وتلميذه أفديلوف فانهما سجنا فى معسكرات الاعتقال ، وجزاء شتفريكوف وافرويمسون · فقد نفيا الى مجاهل سيبيريا ، وجزاء أجول وفرى فقد نفذ فيهما حكم الموت ، ولحق بهما لفيت واليجن وغيرهم من علماء البحوث الطبية والنباتية وبخاصة علوم الخلايا والتوليد ، لانها العلوم التى كذبت نظريات كارل ماركس التى لا يجوز للعقل البشرى أن يكشف نظرية غيرها ، من طريق البحث أو طريق التفكير ·

هذه أسماء نسوقها للمتعلمين من الاطباء خاصة ، لأنهم يستطيعون أن يتتبعوها فى مراجع بحوثها ، أو يستطيعون أن يسألوا عنها أولئك الدجائين الذين يتسمون أمامهم باسم التقدميين وطلاب الارتقاء ·

أكثر من خمسين عالما قتلوا أو سجنوا أو سيقوا الى المنفى السحيق، لان بحوثهم لا توافق الوحى المنزل على كارل ماركس فى أواسط القرن التاسع عشر ، وهكذا ينبغى أن تكون الحرية العقلية : حرية التقدميين وذوى الآراء التى تنطلق من جميع القيود ·

★★★

فاذا تحولنا من جانب البحث العلمى الى جانب الفن والادب ، فلا حاجة بنا الى أكثر من الحقيقة الماثلة التى لا يستطيع أجرأ الكذابين من الشيوعيين أن يبعث الشك الى حرف واحد من حروفها ، وهذه هى الحقيقة :

ان ايسنين أشعر الفلاحين من الشيوعيين مات منتحرا ·
مايكفوسكى أشعر الصناع من الشيوعيين مات منتحرا ·

اسكندر بلوك أكبر ادباء الشيوعيين فى هذا الجيل قتل فى حادث مريب ·
بونين الكاتب الروسى الذى استحق جائزة نوبل هارب من البلاد الروسية ·

ولا ينقضى عام واحد دون أن يصدر الامر الحاسم من الرقابة بمصادرة كاتب أو كتاب ·

وآخر ما صدر من هذه الاوامر فى هذا العام أمر بالحجر على اهرنبرج وزملائه يقترن به أمر الى المطابع والصحف بتحريم طبع الكتب التى يؤلفونها وتحريم التعقيب عليها ·

فان لم يكن هذا كافيا فليرجع « التقدميون » المزعومون الى نتاج روسيا من الادب فى أظلم عهود القياصرة ، ونتاجها من الادب فى عصر « التقدم والارتقاء » ·

لقد أنجبت روسيا القيصرية أدباء عالميين من طراز دستيفسكى وتولستوى وترجنيف وبوشكين وأندرييف وشيكوف وغيرهم من الكتاب والشعراء ·

أنجبتهم فى عهد الامية والاستبداد ·

فأين هم أدباء الروس العالميون اليوم ؟

أين هم مع ازدحام العالم بالناشرين المسخرين لنشر الآداب الشيوعية فى كل بقعة من بقاع المعمورة ؟

لم تنجب روسيا الشيوعية أديبا فردا من طراز هؤلاء ·

لأن ظلام القيصرية أرحم بالمواهب الانسانية من مذهب يمسخ الانسان ويهبط به الى مراغة الحشرات ·

أيها الشبان المتعلمون ان الذى يخاطبكم رجل لم يكن من اصحاب القصور ولن يكون ·

ولم يكن من اصحاب التركات ولن يكون ·

ولم يكن من أصحاب الأموال ولن يكون ·

وأن الشيوعية لن تضيره من جهة المال ، بل لعلها تغدقه عليه كما تغدقه على دعاتها المأجورين ·

انما تضيره الشيوعية فى شىء واحد ، وهو كرامته الانسانية وليس فى العالم شىء بعدها يحرص عليه انسان ·

وهذه هى الوقائع ، وهذه هى حقيقة الحال عند هؤلاء التقدميين . فصدقوها أو لا تصدقوها فما نحن ممن يستجدى التصديق أو نبسط اليد سائليه ممن يحتاج اليه ·

انما يعنيكم أنتم أن تختاروا بين الآدمية وبين مسخ الآدمية ، وأن تعرفوا أين طريق النكسة وأين طريق الارتقاء ·

الى العمال

خاطبنا طلاب العلم فى مقال سابق عن الدعاوى الباطلة التى ينشرها دعاة الشيوعية بين الطلبة باسم « التقدميين » ٠

ونوجه الخطاب اليوم الى طوائف العمال فنقصر القول على الحقائق التى تعنيهم من الدعـاية الشيوعية ونتحدى من شـاء من الشيوعيين أن ينقض حقيقة واحدة منها ، لأنها قائمة مخسوسة لا تحتاج الى دليل وهى :

١ ــ لا تقل ساعات العمل فى البلاد الروسية عن ثمانى ساعات فى اليوم ، وتزيد حتى تبلغ اثنتى عشرة ساعة فى الصناعات الكبرى ٠

٢ ــ ليس للعامل حق فى اختيار المصنع الذى يعمل فيه ٠

فاذا خرج من مصنعه بغير اذن المدير الذى يشرف عليه لم يسمح لـه بالعمل فى مصنع آخر ، ويحرم فى هذه الحالة من بطاقات المسكن والملبس والطعـــام ٠

٣ ــ الاضراب محرم فى البلاد الروسية ، ويعاقب عليه بعقوبة التخريب sabotage أو الخيانة العظمى ٠

والبلاد الروسية هى البلاد الوحيدة التى لم يقع فيها اضراب واحـد من قبل الحرب العالمية ببضع سنوات ٠

٤ ــ مساكن العمال فى عنــابر مزدحمة تختــارها ادارة المصنع لهـم ولا يسمح لهم بتبديلها ٠ ويســكن المديرون فى البيوت المســتقلة وقصـور الضواحى المحيطة بالمـدن ، وتخصيص لهم الســيارات للانتقــال بين المدن وضواحيها ٠

٥ ــ تصرف الجرايات فى البلاد الروسية على ثلاث طبقات : طبقة تشتمل على اللحم والخضر والفاكهة « والكافيار » أحيانا فى الوجبات الثلاث، وطبقة تشتمل على هذه الأصناف فى بعض الوجبات ، وطبقة لا تزيد عـلى الخبز والحساء وبعض اللحوم أياما فى الأسبوع ٠

٦ ــ يحاسب العامل بالقطعة فى كثير من الصناعـات ، ويضطر الى العمل ساعات بعد عمله اليومى لزيادة الأجر من طريق زيادة الانتاج ٠

الأساس ١٦/٤/١٩٤٨ ٠

٧ ـ يقول دعاة الشيوعية فى دعاياتهم أن القصور والبساتين والضياع الواسعة ستصبح كلها ملكا للعامل اذا انتشرت الشيوعية فى بلادهم ٠

والحقيقة أنه لا يوجد فى روسيا بيت واحد يملكه عامل واحد ٠

ومن أنكر هذه الحقيقة من دعاة الشيوعية فليذكر موقع هذا البيت واسم العامل الذى يملكه اذا استطاع ، وهو لا يستطيع ، لأن الملكية محرمة على العمال ، ويعتبر الفلاح الذى يقيم فى مسكن ريفى مستأجرا لذلك المسكن ما دام يعمل فى الحقل المشترك بأمر الحكومة ٠

٨ ـ حالة العمال فى البلاد الروسية أسوأ جدا من حالتهم فى البلدان التى يسمونها بالبلدان « الرأسمالية »

ولهذا تأبى حكومة روسيا أن يخرج عمالها الى البلاد الأجنبية ليطلعوا على حقيقة هذه الحال ، وتمنع الدخول الى بلادها من الخارج خوفا من ظهور هذه الحقيقة ٠

وقد حجزت ألوف الجنود الروسيين فى الموانى ، والمعسكرات المعزولة بعد عودتهم من الميادين الخارجية ، لتحول بين الشعب وبين الاطلاع على شئون العالم كما عرفها أولئك الجنود ٠

ولو كانت روسيا « نعيم العمال » كما يشيعون لفتحت أبوابها لمن يشاء الخروج منها والدخول اليها وكان ذلك أفعل وأجدى فى نشر الشيوعية عن انفاق الملايين وتدبير الدسائس لترويج الدعوة الى ذلك « النعيم » المزعوم

٩ ـ بعد الدفعة الأولى لهجرة الأرمن من البلاد المصرية ، لم يسافر أحد من الباقين فى هذه البلاد ٠

ولو كانت الحالة هناك مما يسر المهاجرين لهاجرت بعد تلك الدفعة دفعات

ولكن الواقع أن الأخبار التى وردت من المهاجرين لا تشجع المقيمين هنا على اللحاق بهم فى ذلك النعيم المزعوم ٠

وعلى الرغم من الرقابة المفروضة على الرسائل والأنباء لم يعدم المهاجرون وسيلة لنقل الحقيقة الى اخوانهم فى البلاد المصرية ٠

ومن تلك الوسائل أن أحد المهاجرين كتب الى أقاربه هنا يستحثهم على اللحاق به ، بعد تزويج ولدهم الوحيد ، ولم يكن هذا الولد الوحيد يتجاوز من العمر ثلاث سنوات ٠

ففهموا المقصود ، وعولوا على البقاء

١٠ ـ ليس فى الكرة الأرضية كلها حاكم فرد غير « الرفيق » ستالين حاكم البلاد الروسية الوحيد ٠

وليس فى الكرة الأرضية ملك ولا رئيس جمهورية ولا دكتاتور تولى الأمر اثنتين وعشرين سنة ، منفردا بالسلطة المطلقة كما انفرد بها هذا « الرفيق » ٠

ومعنى ذلك واحدة من اثنتين : فاما ان الجمهوريات السوفيتية ـ وعدد سكانها مائة وثمانون مليونا ـ قد خلقت من الصالحين للحكومة ، واما أن الحكم هناك للبطش والغدر والاستبداد ٠

١١ ـ ليس فى الكرة الأرضية حكومة واحدة تستولى على جميع أرباح العمل غير الحكومة الروسية فهى الرأسمالية التى لا يدانيها فى تسخيرالعمال أحد من « الرأسماليين »

١٢ ـ لو كانت الشيوعية تحارب الرأسمالية حقا وتقضى عليها حقا لبقى على العمال أن يسألوا أنفسهم : لماذا يحالفها اليهود فى كل مكان وهم قوم لا عمل لهم فى تاريخهم كله غير تدبير المال وجمع رؤوس الأموال ؟؟

هذه حقائق بينة بنفسها لمن شاء أن يشهدها بعينيه ويلمسها بيديه ، ولمن شاء بعد ذلك ما يشاء ٠

الى الحقوقيين

وجهنا الخطاب فى مقالين سابقين الى الطلبة والعمال عما يعنيهم من دعاوى الشيوعية التى تروجها بينهم ، بما تنتحله لنفسها من الاسماء المختلفة ٠

وفى هذا المقال نوجه الخطاب الى طلاب الحقوق خاصة ، ورجال القانون عامة ، لأنهم يريدون أن يحكموا للشيوعية أو عليها ، بمقدار ما يجرى فى بلادها من أحكام العدل ويؤثر عنها من نظام القضاء ٠

والشيوعية لم تفد القانون شيئا من جهة المراسم ولا من جهة التشريع٠

فالمحكمة الشيوعية تنعقد وليس لها مراسم على الاطلاق ، ولعلهم يبالغون فى الغاء المراسم عمدا فى كل ما يتصل بهيبة القضاء ٠

ليس القضاة الشيوعيون من علماء القانون ، وقد يكون منهم التاجر والصانع والفلاح الصغير ، وكلهم يجلسون للفصل فى القضايا بالملابس التى يختارونها ٠ ولو كانت ملابس البيت أو المصنع أو مباذل الأسواق ٠

ويدخن القضاة ويشربون القهوة والشاى كما يفعل الآخرون ، لأن الاحترام عندهم تقليد من تقاليد « البرجوازية » أو « الرأسمالية » المنحلة ، فلا محل للاحترام فى مجتمع الشيوعيين ! ٠

وهو كلام يقولونه ولا يفهمونه ولو سألوا أنفسهم عن غاية مدلوله مرة لعرفوا أنه حكم منهم على الشيوعية بأنها شىء حقير ٠

فهل بطل الاحترام من الدنيا ؟

أليس فى الدنيا شىء محترم ؟

ألا يطالب الانسان باحترام موقف أو باحترام انسان ؟

اذا كانت الشيوعية تزيل الاحترام من الدنيا فكفى بذلك مسخا وهوانا للشيوعية ٠

أما اذا كان فى الدنيا محل للاحترام فلماذا لا يحترم قدس القضاء وهو المكان الذى تتعلق بهيبته هيبة الحق والأمن وهيبة المجتمع كله على أى نظام من النظم أو مذهب من المذاهب ؟

الأساس ١٩٤٨/٤/٢٢ ٠

لكن الرغبة فى « تسفيل » كل شىء هى شهوة الشيوعيين الغالبة ٠٠٠ وما داموا « ماديين » فهم أعداء التقديس وعشاق التسفيل ٠

وقد يكون من المضحك ـ ومن المفيد ـ فى وقت واحد أن نسوق لهذه الشهوة مثلا من أمثلتهم فى مجال الأدب والبلاغة ٠

فقد أراد شاعر من شعرائهم أن يصف الشمس فى ساعة الغروب ، فعز عليه أن يكسوها بسرابيل الفخار والجمال كما يفعل البراجوازيون ، وقابل ذلك التفخيم بنقيضه من التسفيل ٠ فقال : انها قد نزلت الى مغيبها وهى حمراء كأنها بركة صغيرة من بول الخيل ٠٠٠ !

وهذه القاعدة فى تسفيل كل شىء هى التى يتبعونها فى جميع المراسم والاجراءات التى يراد بها خلع كل مهابة عن قدس القضاء ٠

أما التشريع فهو فى جملته من قبيل القضاء العرفى أو قضاء المجالس العرفية ، تطبقه كل محكمة على الوجه الذى تراه ، ما عدا بعض الأوامر والتعليمات التى يلتزمونها فى بعض « الأحوال الشخصية » على الخصوص ٠

وقد يقال أن ذلك كله لا يهم وانما المهم هو تحقيق العدل فى الاحكام ٠

فلا نطيل التمثيل فى هذا الباب ، وانما نتخذ الأمثلة من القضايا التى أعلن الشيوعيون أخبارها فى أنحاء العالم ، وهى قضايا المتهمين فى المسائل السياسية ٠

ففى كل قضية من هذه القضايا يعترف المتهمون بالذنوب التى تنسب اليهم ، ويبالغون فى تقبيح ذنوبهم واتهام أنفسهم ٠ فاذا سئل أحدهم : هل فعلت هذه الجريمة ؟ كان جوابه فور الساعة نعم ٠ واننى من أجل ذلك لنذل حقير ٠ استحق من المحكمة أقسى العقاب !

مثل هذا الاعتراف غنى عن التعليق ٠

غنى عن التعليق لأنه يدل على الاكراه والتعذيب ٠

وغنى عن التعليق لأنه يدل على سخف شديد من أولئك الذين يصطنعونه ويظنون أنه تدبير يجوز على عقول الناس فى الأمم الأخرى ٠

وقد أوعز الشيوعيون الى دعاتهم فى البلاد الاوربية ليدفعوا ما علق بأذهان الناس من غرابة هذه المحاكمات ٠

فقال واحد من هؤلاء الدعاة ـ وهو صهيونى من علماء الاقتصاد فى البلاد الانجليزية ـ أن الاوربيين يستغربون هذا الأسلوب من أساليب الاعتراف ، لأنهم يجهلون النفسية السلافية ٠٠٠ ولو علموا أنها نفسية مطبوعة على « تعذيب النفس » واتهامها لطول عهدها بالاستبداد ، لما استغربوه ٠

ونسى هذا المضلل أن النفسية السلافية لم تخلق فى هـذه السنوات الأخيرة ، بل كانت مخلوقة كما هى فى عهد القياصرة وكانت المحاكم تحاسب المتهمين فينكرون ويصرون على الانكار ، ومنهم المتهمون السياسيون ٠

ونسى العالم الصهيونى أيضا أن المحاكمات من هذا القبيل قد حدثت فى بلاد السلافيين حينما استولى الشيوعيون على سلطة الحكومة ، فاعترف المتهمون هناك على هذا الأسلوب العجيب من أساليب الاعتراف ٠

انما الحقيقة-كما أذاعها الهاربون من البلاد الشيوعية هى أن المتهم هناك يسام ألوانا من العذاب لا تطيقها البنية البشرية ، وتستهين بالمـوت العاجل فى سبيل الخلاص منها ٠

ومن ذلك أنه يوضع فى حجرة معرضة لتكييف الهواء ، فترفع الحرارة حتى تبلغ حـد الاذهـاق ، وتنزل على أثر ذلك حتى تبلغ حـد الانتفـاض والقشعريرة ، ويتكرر ذلك فى الليل والنهار عدة مرات ٠

ومن ذاك أنهم يحقنونه ببعض المواد التى تشل الارادة ، وهى مواد معروفة عند الاطباء يحتالون بها أحيانا على أنطاق من يتظاهرون بالخرس أو البكم وهم قادرون على السمع والكلام ٠

ومن ذاك أنهم يهددونه بتعذيب أهله وأبنائه ، ويعرضونهم فعلا للعذاب الأليم بين يديه ٠

ومن شك فى امكان ذلك فلا حاجة به الى رحلة طويلة يعـرف منها ماتستبيحه أخلاق الشيوعيين وما لا تستبيحه ٠ بل حسبه أن يذكر أن مظاهرة « قصر العينى » من تدبير الشيوعيين ، وأن هذه المظاهرة كانت قائمة على تجويع المرضى والابرياء وحرمانهم ما هم فى أشد الحاجة اليه من الدواء والاسعاف ٠

حسبه أن يذكر ذلك ليعلم ما يفعله الشيوعيون وهم مطلقون من كل قيد آمنون من كل عقاب ٠

وكل أولئك مطابق للمبدأ الأصيل الذى تقوم عليه الشيوعية أو المادية الثنائية ، وهمان ليس لهما وجود ٠ وانما القانون مصلحة خاصة تفرضها الطبقة الحاكمة ، وكل ما حقق تلك المصلحة فهو العدل الواجب فى المجتمع الذى تحكمه تلك الطبقة وهكذا ينبغى أن يكون العدل فى المجتمع الذى تحكمه « البرولتاريات » أو الصعاليك ٠ فكل عمل من أعمال القسوة والغدر مباح فى هذا السبيل !

هذا هو العدل ، وهذا هو الحق ، فى عرف الشيوعية ، وهى بهـذا الميزان وبكل ميزان ، محكوم عليها فى عرف الآدميين ٠

الاسلام والشيوعية

جاء فى أبناء العاصمة الانجليزية أن التقارير التى تلقاها مؤتمر الشرق الأوسط الذى ينعقد فيها الآن تدل على أن الشيوعية تبدى فى البلدان العربية نشاطا لا نظير له فى البلدان الأخرى ، وان أصحاب تلك التقارير يميلون الى استبعاد الرأى القائل بحصانة البلاد الاسلامية من الشيوعية ، لأن الاسلام والشيوعية لا يتفقان • فان الشيوعيين كثيرا ما استغلوا الجماعات الاسلامية الدينية فى بث التعاليم التى تناهض الغربيين الملاحدة من عباد الدينار •

أما أن الشيوعية تخص بلاد العرب والمسلمين بنصيب ممتاز من دعايتها فليس بالخبر الجديد • لأن الواقع يظهره والكل يتوقعه ما دامت بلاد العرب والمسلمين ملتقى القارات من جهة ومركز الامامة لمئات الملايين فى آسيا وأفريقية من جهة أخرى •

كذلك ليس بالجديد أن الدين الاسلامى يعوق الشيوعية عن نشر دعوتها أو الترويج لأغراضها •

فان الدين الاسلامى يعوق الشيوعية ، بل هو أكبر عائق فى طريقها على تقدير واحد ، ليس هو مع الأسف بالتقدير الصحيح •

ان الاسلام أكبر عائق فى طريق الشيوعية اذا كانت هذه الشيوعية مذهبا محترما يعتمد على الاقناع بفكرة لا محيد عنها •

ففى هذه الحالة تصطدم الشيوعية بعقائد الاسلام فى كل عقيدة منها ويتعذر على الداعى الشيوعى أن يواجه المسلم بفكرته وهو عالم باحكام دينه

ولكن الواقع أن الشيوعية « مؤامرة ترمى الى تنفيذ جريمة كبيرة » لهدم الحضارة القائمة ، وليست هى بدعوة محترمة تعتمد على أفكار واضحة لا تحيد عنها •

هى مؤامرة يتوسل أصحابها بكل وسيلة لتنفيذ الجريمة التى يدبرونها ، فلا يبالون خداع الناس عن عقائدهم ولا يتورعون فى تصوير مذهبهم على أية صورة تضمن له القبول عند طائفة من الناس ، ولو اتخذوا له صورتين متناقضتين تختلفان مع اختلاف الزمن أو اختلاف البلاد •

الاساس ١٩٤٩/٧/٢٥ •

فالشيوعيون يكفرون بالوطنيـــة ويعتبرونها حيلة من حيـل أصحاب الأموال لتسخير العمال ، ولكنهم ينفخون في جذوة الوطنية كلما حاربوا دولة من الدول التي يتنازعونها • كما صنعوا في الصين قبل الحرب العالمية وما زالوا يصنعون فيها الى زمن قريب لا يتجاوز بضعة أشهر ، حين تغلبت كفة الشيوعيين هناك على كفة « الوطنيين » •

وقد صنعوا مثل هذا في فلسطين قبل نهاية الانتداب البريطاني وبعد انتائهه • فكان أتباعهم في فلسطين يســمون حركتهم بحركة « التحــرير الوطني » حتى استغنوا عن التبشير بالوطنية فعدلوا عنها الى محــاربة الاوطان العربية جميعا باسم الطبقات •

وهم يجرون في خداعهم وتمويههم على هذه السنة كلما احتاجوا الى محالفة الاديان بين من يعتقدونها •

وقد يخلقون الجماعات الدينية التي تظهر غير ما تبطن وتعمل لنشر الشيوعية والتمهيد لها ، وهي تتراءى للناس في مظهر الغيرة على الدين والجهاد في سبيله •

وعندنا نحن شاهد قريب على هذه المخادعة بالدعوة الدينية من تلك العصابة التي قامت على نظام العصابات الشيوعية في أساليبها ووسائلها وتلقت منها العدة والعتاد وعملت على خدمتها باشاعة الفوضى ونشر الفتنة والقلق والاضطراب •

فالدعوة التي تقوم على فكرة تقف في سبيلها الفكرة ، وتقف في سبيلها العقيدة •

أما الدعوة التي تتحول الى مؤامرة مصرة على تنفيذ جريمتها الكبرى بكل وسيلة والاحتيال لها بكل حيلة والتمثل من أجلها في كل صورة ، فانما تحارب كما تحارب المؤامرات •

انما تحارب بقوة القانون ويقظة الساهرين على استقرار النظام •

واذا قيل أن محاربة الشيوعية بالقانون وحده لا تكفي فيجب في هذه الحالة أن نفرق بين الشيوعية نفسها وبين الدعوة الى الشيوعية •

فمحاربة الشيوعية نفسها انما تكون باصــلاح المعيشة ونشر الرضــا والطمأنينة ومنع أسباب الشــكوى والامتعاض بين الطبقــات الفقيرة على الخصوص •

فلن تحارب الشيوعية نفسها بسلاح أمضى من هذا السلاح ، ولن يفلح سلاح آخر في محاربتها ولو تضافرت على تأييده جميع القوانيين •

أما الدعوة الى الشيوعية فلن يمنعها اصلاح المعيشة بل يزيدها ويثير أصحابها ويستحثهم أبدا الى مضاعفة الجهد واختلاق أسباب جديدة للتحريض والتهييج ·

فلا يطلبون اذن صلاح حال الفقير بل يعمدون الى صاحب المعاش المضمون ويثيرونه على من هو أرفه منه معاشا ليحسده وينقم عليه ·

ولن تستغنى المجتمعات عن سلاح القانون فى محاربة هؤلاء المفسدين ، لأنهم متآمرون على تنفيذ جريمة وليسوا بدعاة الى فكرة يحترمونها ولا يقبلون الخداع فيها ·

على أن الساسة الذين يبحثون اليوم فى مكافحة الشيوعية ، ويتلقون التقارير من بلدان الشرق الأدنى عن نشاطها فيها يحق لهم ـ بل يحق عليهم ـ أن يستوفوا تلك التقارير بعض الاستيفاء ليعرفوا مدار الدعوة الشيوعية فى هذه البلدان أن أرادوا أن يعرفوها حق عرفانها ·

ان مدار الشيوعية فى بلدان الشرق الأدنى هو مواقف أولئك الساسة أو هو الطمع الاشعبى الذى يعميهم عن مواجهة الحقيقة ويصيبهم أحيانا بما هو شر من العمى المطبق وهو العمى على حسب المشيئة والاختيار · يبصرون ما يرضيهم ويغمضون عما لا يرضيهم ، وتفتح الشيوعية عيونها جميعا لما يرضى ويسخط على السواء ·

وان الشيوعية لتفقد نصف وسائلها على الأقل اذا شاء الساسة الذين يبحثون اليوم عن مكافحتها ··· وانهم ليشاءون ويستطيعون ، فهل يفعلون؟

الصهيونية والشيوعية

بين الصهيونية والشيوعية تحالف ظاهر فى هذه الأيام على الخصوص، وعندنا أنه تحالف طبيعى لا غرابة فيه ، ولكنه يبدو غريبا اذا قصرنا النظر على ظواهر الأحوال ٠

فكثير من أصحاب الملايين الصهيونيين ، يؤيدون الشيوعية وينشرون الدعوة لها ويجتهدون فى خدمتها ، مع أن الشيوعية كما يقولون تحارب رؤوس الأموال ٠

وكثير من الشيوعيين يؤيدون الصهيونية ويساعدونها بما يستطيعون داخل فلسطين وخارجها ، مع أن الصهيونية دعوة دينية ، والشيوعية كما هو معلوم مذهب مادى ينكر الأوطان كما ينكر الأديان ٠

فلا وطن فى الشيوعية ، لأن الوطنية فى عرف الشيوعيين خدعة من الطبقة الحاكمة لتسخير الطبقات الأخرى فى خدمة مصالحها ٠

ولا دين فى الشيوعية ٠ لأن الدين عند الشيوعيين حيلة لتخدير الشعوب ، أو هو أفيون الشعوب كما يقولون ، ينخدع به الفقراء لينسوا نصيبهم من الدنيا ، انتظارا للنعيم فى الدار الآخرة ٠

فالعجب اذن أن يؤيد الشيوعيون حركة تقوم على الوطن وعلى الدين : العجب أن يؤيدوا الصهيونية وهى دعوة الى وطن قومى يحتله أبناء دين معين ، وهم اليهود ٠

ولكنه عجب فى الظاهر فقط دون الحقيقة ٠

أما اذا نظرنا الى الغاية التى يعمل لها الشيوعيون والصهيونيون فلا عجب فيه على الاطلاق ٠ لأن الغاية واحدة فى الدعوتين ٠

فالشيوعية تدعو الى ازالة الأديان والاوطان وانكار كل شيء غير المسائل المادية أو المسائل المالية ٠ ومتى زالت الأديان والأوطان وأصبح الحكم فى العالم للمادة وحدها ، فالصهيونية هى التى تقبض على زمام العالم ، ودولة صهيون هى التى تسود فيه ٠

الاذاعة ١٩٤٨/٧/١٧ ٠

وما هي دولة صهيون ؟

أن الصهيونية تنسب الى قمة صهيون التي كان يقيم فيها الملك داود في بيت المقدس · ويعتقد الصهيونيون انهم شعب الله المختار ، وان دولة صهيون ستعود مرة أخرى على الأرض ، لتحكم العالم كله ويعود الأمر الى شعب الله المختار ، فتخضع له جميع الشعوب ·

وقد كان كارل ماركس ـ مؤسس الشيوعية المادية ـ يهوديا ثم تحول الى الديانة المسيحية ، ليخفي أغراضه من دعوته الى مذهبه · وهو في الحقيقة قد عمل في خدمة الصهيونية عملا لم يعمله قط أحد من دعاة الصهيونية الظاهرين · لأن الصهيوني لا يقنع أحدا غير اليهود ، ولا يستطيع أن ينشر الدعوة الى سيادة اليهود بين أناس لا ينتمون الى جنس اسرائيل ولا يدينون بالعقائد اليهودية ، ولكن الشيوعي ينشر مذهبه بين جميع الأمم ، ومتى انتشر مذهبه قامت دولة صيهون وحدها ، لأنها لا تجد عائقا في طريقها، بعد زوال الأوطان والأديان ، وقيام الأمر كله على الماديات ·

ان كارل ماركس لم يكن قط رجلا معروفا بالرحمة والعطف والمودة في حياته الخاصة أو في حياته العامة ·

ان أصحابه أنفسهم كانوا يصفونه بجمود العاطفة ، وغلبة الكراهية في نفسه على كل شعور ·

ومن الخطأ الشائع أنه نشر مذهبه لنصرة الضعفاء والفقراء ·

فالواقع أنه نشر مذهبه لالغاء جميع العقائد الروحية والمثالية ، وتفسير التاريخ كله بشيء واحد وهو المال ، ولذلك سمى مذهبه بالتفسير المادي للتاريخ ·

فالتاريخ الانساني كله ـ في رأى كارل ماركس ـ هو تاريخ المال ·

والعقائد والأديان والأخلاق والفنون والآداب ، كل أولئك لا يعتبر في رأيه الا وسيلة لتغليب مصلحة واحدة ، وهي مصلحة القابضين على زمام المال ·

وقد كان المال في أيدي الفرسان ·

ثم أصبح المال في أيدي التجار وأصحاب الصفقات ·

ثم أصبح المال في أيدي أصحاب الصناعات ، أو أصحاب المعامل والشركات الصناعية ·

ثم يقبض العمـــال والصـــناع على زمام المعـامل والمصـانع فتظهر الشيوعية ، وتنحصر الطبقات كلها فى طبقة واحدة ·

ومن هنا جاء اهتمامه بالعمال والصناع ·

لم يجىء هذا الاهتمام من طريق العدل والانصاف · وانما جاء من طريق الايمان بالمال وحده ، أو من طريق الكفر بكل عقيدة غير عقيدة المال ·

فالمهم فى مذهب كارل ماركس هو تغليب المادة على كل شىء ·

وتغليب المادة على كل شىء هو الوسيلة التى يقبض بها الصهيونيون على كل شىء ·

ومن ثم كان كارل ماركس هو أكبر الصهيونيين ، وكانت الشيوعية هى أكبر خدمة للصهيونية ، وكان هذا الاتفاق العجيب بين مذهب قومى دينى ، وبين مذهب ينكر جميع الأوطان والأويان ·

وليس هنا محل البحث فى حقيقة هذا المذهب من الوجهة العقلية أو التاريخية وانما محل البحث أن المذهب كله ينتهى الى خدمة الصهيونية ، وان كارل ماركس لو أراد خيرا بالضعفاء والفقراء لكانت له ألف وسيلة غير الغاء الأديان والأوطان ، فان العمال والصناع قد بلغوا من الحقوق فى البلاد الديمقراطية ما لم يبلغوه فى بلاد الشيوعيين ، دون حاجة الى الغاء وطن أو دين · ولكنه لم ينشر مذهبه لخير أحد من طبقة من الطبقات ، وانما نشره لنشر المادية والغاء كل عقيدة غير العقيدة المادية ، وهذا هو بيت القصيد ، وهذا هو الزمام الذى أراد كارل ماركس أن يصنع به العالم فى أيدى أبناء قومه أى فى أيدى الصهيونيين ·

يدور البحث الآن فى الصهيونية هل هم أبناء جنس أو أبناء دين ·

والبحث العلمى قد يثبت أن الصـــهيونيين لا ينتمون جميعـــا الى بنى اسرائيل ، وقد يثبت أن اليهودية عقيدة آمن بها أناس من غير بنى اسرائيل ، وبخاصة فى القرون التى تقدمت مولد السيد المسيح ·

وقد يثبت البحث العلمى أن أبناء اسرائيل أنفسهم قد تفرقوا فى جهات الأرض ، فاختلطت انسابهم بأنساب الأمم ، كما يحدث عند كل هجرة وعند كل اختلاط ·

ولكن البحث العلمى شىء ، وخطر الصهيونية شىء آخر ·

فخطر الصهيونية يقوم على اعتقـاد الصهيونيين أنفســهم ، ولا يقوم على مكان هذا الاعتقاد من العلم أو من التاريخ ٠

والصهيونيون يعتقدون أنهم سلالة بشرية خاصة ، وأنهم يستحقون حكم العالم لأنهم من نسل اسرائيل ، وقد وعد اسرائيل بأن يحكم العالم هو وأبناؤه

الى آخر الزمان متى قامت فى العالم دولة صهيون

أنظر اليهم والى أبناء الأديان الأخرى ٠

فما من دين من الأديان ، الا ويعتقد أبناؤه أن دينهم رسالة عامة لجميع بنى الانسان ٠

فالمسيحيون يبشرون بالمسيحية ٠

والمسلمون يدعون الى الاسلام ٠

والبوذيون ينشرون عقائدهم ليؤمن بها من يشاء ٠

الا الصهيونيين !

فانهم لا يدعون أحدا الى الايمان باليهودية ، ولا يسرهم أن يؤمن بها أحد غيرهم لأنهم يعتبرونها دينا خاصا لأسرة من البشر خاصة ولا يعتبرونها رسالة عامة لجميع بنى الانسان ٠

ولا ترى أسرة يسرها ان يشاركها أحد غيرها فى حقوق الأسرة ، لأنه يشاركهم اذن فى حصة من الميَراث ٠

وهكذا ينظـر الصهيونيون الى أنفســهم ، فلا يقبلون من أحـد أن يشاركهم فى ميراثهم ، وقد ينتقل أحدهم الى المسيحية أو الاسلام أو يلحد فى الدين ، أو يغير وطنه السياسى من مكان الى مكان ، ولكنه ينظـر الى اليهودية نظرته الى قرابة اللحم والدم ، وان تباينت الأمم والأوطان ٠

فهم أصحاب ميراث يحافظون عليه ، وليسوا بأصحاب مذهب ينشرونه أو تسرهم هداية الناس اليه ٠

وهم يطمحون الى الســيادة العـالمية لأنهم يريدون تسـخير العـالم واستغلال شعوبه ، لا لأنهم يريدون له الهدايه والصلاح ٠

ولهذا نؤمن كل الايمان أنهم خطر على العالم بأسره ، وان دعوتهم صائرة لا محالة الى الزوال ٠

لأن التاريخ كله يعلمنا درسا واحدا لا شك فيه · وهو ان السيادة على العالم لن تكون لأمة واحدة ، بالغا ما بلغ شأنها من البأس والثروة والمنعة والذكاء ·

ان الصهيونية لا تستحق بغض العالم لعصبية دينية ، ولكنها تستحق البغض منه لأنها هوس شديد الخطر على سلام بنى الانسان ·

ومن عجائب الأيام ان الصيونية والنازية يتلاقيان فى هذا الهوس الوبيل على أصحابه وعلى غيرهم · فهؤلاء فى رأى أنفسهم شعب الله المختـار ، ومصير هؤلاء حقا كمصير هؤلاء ·

والعالم لم يخلق لتسوده أمة واحدة ، أو طبقة واحدة وانما خلق ليكون عالما ، أى ليكون جملة من الأمم وجملة من الطبقات ، تسوقها الحوادث سوقا الى التعاون والاشتراك فى المصالح والمقادير ·

وهم من الأوهام أن تسود العالم أمة واحدة ، فما سادته قط أمة فيما مضى ، ولن تسوده أية أمة بعد اليوم ·

ووهم من الأوهام أن العالم تسوده طبقة من الطبقات ، وأن العقائد تقوم على مصلحة طبقة دون طبقة ، فما من دين من الأديان الا وهو يفرض على الأغنياء حقوقا لا يفرضها على الفقراء ·

مذهب ذوى العاهات

من الأوهام التى جعلت بعض الناس يظنون أن الانتماء الى الشيوعية مقصور - أو ينبغى أن يكون مقصورا - على الفقراء والمعوزين • أن أولئك الواهمين يعتقدون أن الشيوعية دعوة الى انصاف الأجراء والعمال •

وهذا هو الوهم الأكبر فى فهم هذا المذهب •

وهذا هو سبب الحيرة التى يحارها بعض الناس كلما سمعوا أن صهيونيا مرابيا يبشر بالشيوعية وهو آخر من يبالى بانصاف الفقير وآخر من يفكر فى الرأفة بالضعيف ، أو كلما سمعوا أن غنيا ميسور الحال يحارب النظام الاجتماعى خدمة للدعوة الشيوعية ، أو كلما سمعوا أن فتاة تتعصب للشيوعية وهى من العاكفات على اللهو والمجون •

ومصدر هذه الحيرة كما تقدم هو الخطأ فى فهم الغرض الأصيل من الشيوعية ، واعتقادهم أن غرضها الأصيل هو انصاف العامل والأجير •

وليس انصاف العامل والأجير غرضا أصيلا فى دعوة كارل ماركس الذى كان هو نفسه « صهيونيا » لم يعرف عنه قط فى حياته أنه رحم أحدا من الناس أو تأثر بعاطفة انسانية •

وانما كان غرضه الأصيل هو اثبات العقيدة المادية وتحطيم كل عقيدة أدبية أو روحانية ، ومن هنا كان أسم مذهبه المشهور بين مذاهب الفلسفة « المادية الثنائية » •

ومن هنا كان الصهيونيون مبشرين بالشيوعية ، وكان من أنصار الشيوعية كل فاسد الطبع مبتلى بداء الاباحة والابتذال ، منطوى النفس على الرذيلة ، كما كان من أنصارها كل ناقم على الدنيا يود لو يخربها على من فيها لعاهة جسدية فيه أو عاهة نفسية شر من عاهات الأجسام •

ومتى كانت الشيوعية كذلك فلا عجب فى أن يدين بها المرابون الصهيونيون الذين يستنزفون دماء الفقراء قبل الأغنياء ، لأن تحطيم عقائد الأديان والأوطان وقيام العقائد المادية يسلم زمام الدنيا الى المرابين سماسرة الأموال فيصبح العالم البشرى كله صهيونيا للصهيونيين •

الأساس ١٩٤٩/٢/٢٥ •

ولا عجب فى أن يدين بها الفتى الاباحى والفتاة الاباحية ، لأن المذهب يسوغ لهما النقيصة التى ابتليا بها ، ويجعل أمثالهما من «التقدميين الأحرار» بدلا من وصمة الخسة والابتذال التى يوصمون بها اذا بقيت للناس عقائدهم فى الأديان والأخلاق ٠

ولا عجب فى أن يدين بها أشخاص يبغضون الدنيا ومن فيها ولا يعنيهم صلاحها وفسادها ، ولا سيما المشوهين وأصحاب العاهات والدنسين والمنبوذين لأن شهوة الخراب فى نفوسهم تحبب اليهم كل دعوة تجعل عاليها سافلها وسافلها عاليها ، وتنعى الدار ومن بناها ٠

فالشيوعية هى مذهب النقمة والاباحة وقلب الأوضاع ، وهى من ثم ملتقى المخربين وذوى العاهات الجسدية والنفسية ، ولا عجب فى اجتذابها لعناصر الفساد والخسة أيا كانت مصادرها ، سواء بين المترفين الميسورين أو بين المعوزين المعدمين ٠

والشيوعى أول من يغضب ويشعر بالاخفاق والفشل اذا صلحت أحوال الفقراء والأجراء بغير قيام « العقيدة المادية » ٠٠٠
لأن قيام العقيدة المادية هو الغرض الأصيل والوجهة الأولى التى اتجه اليها كارل ماركس حين بشر بدعوته الخبيثة ٠

ولهذا يستميت الشيوعيون فى محاربة كل حكومة تعنى بالاصلاح وتيسير أسباب المعيشة كما يفعلون الآن فى الهند وأقطار آسيا الشرقية وهى الأقطار التى يعمل زعماؤها على تقريب الطبقات والحد من مطامع المستغلين وأصحاب الأموال ٠٠٠

وأول من يبتئس ويحزن اذا استراح الأجراء والفقراء هم طغمة الشيوعيين ، لأنهم يريدون أن يظل الأجراء والفقراء دائما متذمرين متبرمين مستعدين لقبول دعوة التخريب والاباحة والتمرد على الأديان والآداب ، ويحزنهم ويذهب بجميع مساعيهم أن يشعر هؤلاء بالرضا ويسر المعيشة والاطمئنان ٠

لقد كانت آخر كلمة فى منشور كارل ماركس المشهور باسم « المانفستو » ٠٠٠ انكم ياصعاليك العالم لا تفقدون شيئا ٠

ومعنى ذلك أنه يريد دائما أن يخاطب أناسا لا يعنيهم خراب العالم ، لأنهم اذا خربوه لم يفقدوا شيئا فيه ٠

والخراب هو الغرض المقصود ٠ اذا كان العالم الذى تهدمت أركانه

وتقوضت دعائم الاجتماع والأخلاق فيه ، هو العالم الذى يملكه الماديون وسماسرة الأموال ، بغير عائقمن أدب أو خلق أو دين ٠

ومن هم الماديون وسماسرة الأموال ؟

هم أبناء جلدة كارل ماركس من الصهيونيين ٠

★★★

أما الوهم الذى تسرب الى بعض الأذهان عن دعوة الشيوعيين الى انصاف الاجراء فمصدره أنهم يفسرون كل شيء فى المجتمع الانسانى بأسباب تتعلق « بالفلوس » دون غيرها ٠

فالفلوس عندهم هى التى أوجدت الأديان والفنون والأخلاق لخدمة الطبقة الحاكمة !

والفلوس هى التى أوجدت طبقة الفرسان ثم طبقة الاقطاعيين ثم طبقة البرجوازيين ، ثم طبقة العمال والأجراء ٠

فليست مسألة العمال والأجراء عندهم الا نتيجة لتطبيق الفلسفة المادية والعوامل الاقتصادية ٠

وهى كلها ذنب فى المذهب يأتى آخرا وليست هى الرأس الأصيل الذى يأتى أولا وبالذات كما يقولون ٠

وانما الرأس الأصيل هو سيادة المادة وبطلان العقائد الأدبية والروحية

ومن ثم لم يكن هناك عجب أن ترى صهيونيا يبشر بالشيوعية أو ماجنا يبشر بالشيوعية ، أو ناقما يبشر بالشيوعية ٠٠٠

لأنها بطبيعتها مذهب أصحاب العاهات ، سواء ما كان منها عاهة جسوم أو عاهة نفوس ٠

أعداء الاصلاح

يتضاعف نشاط الشيوعيين فى هذه الأيام ، وتتوالى الأنباء عن ضبط الخلايا واعتقال الأفراد الذين يوزعون منشوراتهم أو يطبعونها ويعدونها للتوزيع خاصة لأنه نشاط لا معنى له فى العهد الذى توافرت فيه جهود الحكومة على تنفيذ مشروعات الاصلاح من تيسير لأسباب المعيشة الى تفريج لأزمة المساكن الى توسيع للصناعة الوطنية الى عناية بالتعليم ومحو الأمية الى أخذ بمبادىء الاصلاح الضرائبى الى توزيع للأرض على صغار الفلاحين الى علاج لمشكلة البغاء ، الى غير ذلك من أبواب الاصلاح والعلاج ٠

يعجب المخدعون فى الشيوعية لهذا النشاط المتضاعف فى هذه الآيام خاصة لأنهم يتوهمون أن الشيوعية دعوة ترمى الى الاصلاح وتحسين المعيشة بين الفقراء على الخصوص ، فمن الواجب على هذا أن تنشط كلما قلت مشروعات الاصلاح وأن تهدأ وتستقر كلما تعددت هذه المشروعات ٠

ولكن الواقع يناقض هذا الفهم للشيوعية كل المناقضة ، لأنها تعمل للتخريب ونشر السخط والتذمر ، وتسرها الحكومة المقصرة فى شؤون الاصلاح الاجتماعى أضعاف سرورها بالحكومة التى تعمل على تحقيقه ، اذ كان الاصلاح أول حائل بين الشوعيين واثارة الخواطر والدعوة الى التخريب ٠

فهم لا يضاعفون نشاطهم فى عهد من العهود كما يضاعفونه عند توافر الجهود على تحسين المعيشة وخدمة مصالح الفقراء ٠

ولهذا نجد أعوان الشيوعية كثيرين متعددين بين طلاب الخراب حيث كانوا ولو كانوا من أصحاب رؤوس الأموال ٠

فكل خلية تضبط من خلايا الشيوعية تنكشف لها فى الحال علاقة بصهيونى من أصحاب رؤوس الأموال ينفق عليها ويتعهدها ويعهدها بالتوجيه والتلقين ، لأن الصهيونية تقيم سلطانها على اطلال الحضارة ، وترجو أن تسود العالم فى اليوم الذى تبطل فيه الآداب والعقائد والأوطان ٠

ومن أعوان الشيوعية المخلصين أصحاب العاهات الجسدية والأخلاقية

الأساس ١٩٤٩/٣/١٤ ٠

والمشوهون فى الطبائع والأجسام ٠ لأنهم من جهة يكرهون الدنيا التى خرجوا اليها مشوهين ممسوخين ، ومن جهة أخرى يجدون من الشيوعية مذهبا يستر لهم عاهاتهم ويصورهم لأنفسهم فى صورة الأبطال المتحررين من قيود العقائد والأخلاق ٠

فكل طالب للخراب حاقد على الناس والدنيا فهو شيوعى مخلص لهذه الدعوة ٠

أما عن عدا هؤلاء فهم مخدوعون أو مأجورون ، ولكن المأجورين بينهم أضعاف أضعاف المخدوعين فى حقيقة هذا المذهب البهيمى الخبيث ٠

ولهذا تجد بين دعاة الشيوعية من ينفق الأموال عن سعة وهو مجهول الموارد أو معروف بأن موارده الظاهرة لا تكفى لبعض ما ينفقه على المسكن والكساء واللهو ووسائل الترويج ٠

وليست المجازفة من أمثال هؤلاء المأجورين بالمستغربة ولو كان كل قصدهم من ترويج الدعوة كسب المال والانفاق عن سعة فى الملاهى والملذات ، لأن الذين يهربون المخدرات ويتجرون بالمحرمات يجازفون كما يجازف دعاة الشيوعية من غير عقيدة ولا فكرة مذهبية ، ويتطوحون فى المجازفة أحيانا الى أبعد من هذا المدى حين ينقلون المهربات والمحرمات من وراء الحدود ويتعرضون فى سبيل ذلك لمقاومة الحراس المستعدين بالسلاح ٠

ولكن القيادة الشيوعية تستوثق من هؤلاء المأجورين عادة بوسيلة أخرى تضاف الى وسيلة الاغراء بالأموال والشهوات ٠

هذه الوسيلة هى توقيع وثيقة يعترف فيها المنتمى الى الحزب من هذه الطائفة بأن يعمل على قلب النظام بالعنف والثورة ، وأنه يدين « بالمادية الماركسية » على هذا الأساس ٠

ومتى استكتبت القيادة الشيوعية داعيتها المأجور وثيقة بهذا المعنى على اختلاف اللفظ والصيغة ، ملكته بالتهديد كما تملكه بالاغراء فلا يستطيع الافلات من يديها ولا التمرد عليها ولو زهد فى أجورها ومغرياتها ، لأنها تهدده فى هذه الحالة بتبليغ أمره الى السلطات مشفوعا بالدليل الذى يعرضه للعقاب ٠

ولولا المخدوعون والمأجورون من هذا القبيل لما وجدت بين الشيوعيين أحدا قط غير طلاب الخراب من الصهيونين والمشوهين وعشاق الانقلاب أيا كان وكيفما كان ٠

وموضـــع العبرة من هــذه الحــوادث أن المجتمع المصرى لن يقنع الشيوعيين بالعدول عن دعوتهم مهما يكن سعيه الحثيث فى سبيل الاصلاح ، لأن الاصلاح هو الذى يغيظهم ويهيجهم الى الحركة ومضاعفة النشاط • ولكن الاصلاح مع هذا لازم لمحاربة الدعوة الشيوعية نفسها ، لأنه ينشر الرضا والطمأنينة ويحول دون نجاح الشيوعيين فى بث الفتنة واستهواء الاسماع وترويج الأباطيل التى تحرض المحرومين والموتورين على التخريب والافساد •

احذروهم كلما أصلحتم

بين الاشتراكيين الديمقراطيين وبين الشيوعيين فرق ثابت فى كل بلد ظهر فيه الفريقان ٠

هذا الفرق هو أن أعمال الاصلاح ترضى الاشتراكيين الديمقراطيين ولكنها تسخط الشيوعيين أشد السخط وتثيرهم أعنف الثورة ، لأنهم يريدون الاصلاح بل يريدون هدم المجتمع قبل كل شيء ٠ ويشعرون بأن أعمال الاصلاح تحول بينهم وبين هذا الغرض الذى يقدمونه على جميع الأغراض ٠

ولهذا ينبغى أن يتوقع المسؤولون عن هذه الأمة نشاطا مضاعفا من جانب دعاة الشيوعية كلما ظهر فى الأمة عمل نافع من أعمال الاصلاح ، ومشروع جديد من مشروعات الانصاف ٠

فهم أعداء أعمال الاصلاح ومشروعات الانصاف ، لأنها تبطل التذمر الذى يعتمدون عليه فى نشر الفوضى والخراب ٠

وظاهر الأمر فيما يدعيه هؤلاء الشيوعيون أنهم يقومون بحركة اجتماعية تتطلبها فلسفتهم التى يسمونها بالفلسفة المادية ٠

وباطن الأمر أنها مكيدة صهيونية لا أكثر ولا أقل ، ترمى الى هدم العقائد والأخلاق التى تقوم عليها المجتمعات الانسانية ليسود حكم المادة وحدها ، وهو بالبداهة حكم « صهيون » وأبناء صهيون من سماسرة الأموال فى كل مكان ٠

كان كارل ماركس – امام الشيوعية أو الفلسفة المادية – يهوديا يقول بانه لا يؤمن بالأديان ٠

ولكنه مع ذلك تحول عن دينه فى الظاهر ليدين بالعقيدة المسيحية،سترا لما يخفيه من خدمة الدعوة الصهيونية ، وتوسلا بهذا المظهر الخادع الى هدم الحضارة الأوربية من داخلها ٠

وراح هذا الصهيونى الماكر ينشر مذهبه الذى يسميه بمذهب الاصلاح على المبادىء العلمية ٠

الأساس ١٣/٤/١٩٤٩ ٠

فاذا بالاصلاح عنده لا يتحقق الا بهدم الأديان وهدم الأوطان وهدم نظام العائلة من أساسه ·

هدم الأديان لأنه يسميها أفيون الشعوب ·

وهـدم الأوطان لأن الوطن فى رأيه وطن الحـاكمين وليس بوطـن المحكومين ·

وهدم العائلة أو الأسرة لأن العائلة كما يقول وسـيلة من وسـائل الاستغلال ·

أما أن الأديان والأوطان والعائلة تستحق الهدم بحكم كارل ماركس فدون ذلك وينفق الحمار كما يقولون فى الامثال ، وأقل ما يقال فى مذهب هذا « الصهيونى » الخبيث أنه محل جدال كبير ·

وأما الشىء الذى لا جدال فيه فهو أن الصهيونية لا تستفيد من شىء كما تستفيد من هدم الأديان والأوطان وتفكيك الروابط العائلية ، لأن الصهيونيين يصبحون ملوك العالم لا محالة اذا صار الأمر كله الى المال والمادة ، فى عالم لا يؤمن فيه الانسان بقرابة ولا بوطنية ولا بدين ·

لا عجب اذن أن نرى الصهيونى مليونيرا مرابيا يمتص دم الغنى والفقير ثم يبشر بالشيوعية ويستميت فى الدعوة اليها ·

وهو لا يفعل ذلك بالبداهة لأنه يكره المال ويحب الانصاف ، ولكنه يفعله لأنه يريد أن يستولى على العالم هو وأبناء جلدته ، حين يسقط الدين ويسقط الوطن وتسقط العائلة ، ولا يبقى بين الناس شىء له حساب غير المادة والمال ·

ولا عجب كما سننا فى خدمة اليهودى لمذهب يملك زمام العالم ·

ولكن ما بال أناس « غير اليهود » يخدمون المذهب الذى يضع زمام العام كله فى أيدى اليهود ؟ ·

ذلك أيضا داخل فى حساب الصهيونى الخبيث ، فهو لا ينتظر من انسان له خلاق أن يهدم العالم ليخدم الصهيونية من حيث يريد أو لا يريد ·

لذلك تتجه دعوته دائما الى اناس لا خلاق لهم من حثالة البشر ·

تتجه دعـوته دائمـا الى أراذل الخلق من ذوى العـاهات والمفاسـد ولا فرق بين العاهات الجسدية والعقد النفسية فى هذا الحساب ·

ولن تجد شيوعيا أبدا الا وهو مطبوع على الحسد والكراهية ، مصاب بعاهة جسدية او عقدة نفسية ، محب للتخريب لسبب من الأسباب ، فلا يهمه

أن يخرب الدنيا على من فيها من أجل جزاء قليل ، أو ذهابا مع شهوة التخريب ولو من غير جزاء ٠

أمثال هؤلاء هم الذين يعثر عليهم رجال الأمن من حين الى حين فى هذه الأيام على الخصوص ٠

ولأنها الأيام التى تتوالى فيها أعمال الاصلاح ، ويتم منها ما يتم ، وتؤخذ العدة لاتمام غيره فى أمد قريب ٠

وبعد أن قاربت مدينة العمال فى أمبابه أن تبلغ تمامها ، ينبغى أن يترقب رجال الأمن نشاطا من جانب الطغمة الماركسية التى لا تبغض شيئا كما تبغض عوامل الرضا والارتياح والاطمئنان الى الرجاء ٠

وسيجدونهم دائما كما عهدوهم شراذم من الفاسدين وذوى العاهات الجسدية والعقد النفسية ، لا يهمهم ما يساقون اليه من خراب لأنهم قزم لا طاقة لهم بالعمار ولا عمل لهم فيه ، وماذا عليهم أن تنعى الدار من بناها اذا كان الهدم هو كل ما يستطيعون ، وكان لهم على ذلك أجر مضمون أو غير مضمون ؟!

هذه عناصرها !

يهودى ، ومعلم فاشل ، وفتاة عابثة ، وماجن مستهتر ، وعامى جاهل ، ومشاغب يبيع الشعب لمن يشتريه ، ومسخ مشوه منبوذ من الحياة ٠

هذا هو قوام كل مجموعة شيوعية توجد فى مصر أو فى غيرها فلا نخلو « الخلايا » الشيوعية من أصناف هذه التشكيلة ، وقد يكون الشيوعى الواحد تشكيلة كاملة من جميع هذه الأصناف ٠

وكل شىء يمكن أن تدعيه هذه المخلوقات فيصدق ٠

٠٠ الا أنهم محبون للخير مخلصون لبنى الانسان غيورون على الانصاف ٠

ولن يعجب أحد اذا قيل له أن هذه « اللمامة » البشرية تسعى الى الخراب ، وانهم يدينون بالشيوعية لأنها ترضى فى نفوسهم تلك النزعة الى التخريب ٠

أما أن يقال ، ولو من قبيل الخيال ، ان هذه اللمامة هى التى تنشد الخير وتصلح نظام الاجتماع فذلك من وراء التصديق ، ومن وراء المعقول ٠

وكلهم معقولون مفهومون اذا كان التخريب هو الغاية التى يسعون اليها ٠

لأن اليهودى يستفيد من هدم المجتمع أن يستولى على العالم الذى لا أثر فيه للاخلاق أو للعقائد أو للوطنية أو للاسرة ٠

والمتعلم الفاشل يحقد على الناجحين فلا يبالى أن يشفى غليل الحقد بكل مصيبة تسوى بين الاخفاق والنجاح ٠

والفتاة العابثة تهدم المجتمع الذى يسميها على الأقل عابثة وتتطلع الى المجتمع الذى يسميها « بطلة » أو رائدة من رواد التقدم والتحرر من قيود الآداب والأخلاق ٠

والماجن المستهتر بطل كتلك البطلة حين يصبح الأدب وضبط النفس نكسة الى الوراء وجمودا يعاب ٠

---

(١) الأساس فى ١٩٤٩/٤/٢٩ ٠

والعامى الجاهل تابع فكل ناعق ٠

والمشاغب المتاجر بالشغب صاحب بضاعة يعرضها فى كل سـوق ، ولا سيما السوق التى تضاعف له الثمن وتغنيه عن الكدح الشريف ٠ والمسخ المشوه لديه من أسباب التخريب ما لا يحتاج الى بيان ٠

كل هؤلاء معقولون على وصف واحد للشيوعية ، وهى أنهـا حركة نقمة وتخريب ٠

وما من شىء يدل على طبيعة هذا المذهب المدمر كما تدل عليه طبائع الذين ينتمون اليه ٠

ولهذا قلنا جادين من قبل ، ونقول جادين اليوم ، ان أصدق تعريف للناس بالشيوعية ان يعرض الشيوعيون طابورا فى الطريق أو طابورا على الورق ، ونعنى بالطابور على الورق كل عرض لهم يمثلهم للبصر والبصيرة على مثالهم الصحيح ٠

★★★

ولن تلقى من هؤلاء أحدا يعرف الشيوعية معرفة بحث وتحقيق

فان وجدت منهم من قرأ بعض الكتب فيها ، أو أحاط بما نشره كارل ماركس ولنين وغيرهما من « فلسفتها » فلن تجد الباعث له على الايمان بها فكرة صالحة للاقناع ٠

فما من فكرة صالحة للاقناع تقنع أحدا سليم العقل والنفس بتقويض المجتمعات الانسانية كافة تنفيذا لحـكم قضى به فيلسـوف واحـد أو مائة فيلسوف ٠

أليس للعصمة الفكرية من حدود ؟

ألا يجوز ـ ولو خمسة أو ستة فى المائة ـ أن يكون كارل ماركس على خطأ فى التقدير ؟

أيمكن أن تعتقد ـ مائة فى المائة ـ أن ذلك اليهودى الماكر على صواب لا يحتمل المراجعة اذا كانت المسألة هدم كل بناء أقامة بنوالانسان فى كل ما مضىمن العصور ؟

كل فكرة لغط بها كارل ماركس وأتباعه هى فى الواقع محل بحث طويل وشك كثير :

القيمة الفائضة · حرب الطبقات · الديالكتيك المزعوم · أصل المادة · أصل الأسرة · أصل الدين كل شيء من الأشياء ·· كلها جدليات فى جدليات·

ولكن الشيوعى « المفطور » يؤمن بهذه الجدليات ايمانا لا يسمح بذرة من الشك ولابشيء من الحيطة والمراجعة ·

لأن هدم العالم مسألة فى طبيعته الممسوخة لا تستحق عناء التردد والبحث الطويل ·

فهو لا يؤمن بالشيوعية على قدر ما فى عقله من برهان بل على قدر ما فى نفسه من الهجوم على الخراب ·

اخربها وانظر ··

وماذا لو خربتها ونظرت فظهر أن كارل ماركس قد اختل ميزانه هباءة أو هباءتين ؟

لا ضير · لا ضير · فغاية ما هنالك أنه عالم خرب ··· وهل فى ذلك ما يستحق عناء التردد والشك والانتظار ؟!

ذلك هو قوام التشكيلة الشيوعية ·

وفى كل يوم تتجلى حقيقتها مع كل خلية يهتدى اليها البوليس ، فهى لا تخلو أبدا من يهودى ماكر ، ومتعلم فاشل ، وماجن مستهتر ، وعامى جاهل ، ومشاغب يتجر بالشغب ، ومسخ تعافه الحياة ·

أما الآونة التى يختارونها للعمل ، ويضاعفون فيها النشاط ، فهى الآونة التى يعمل فيها المسؤولون على الاصلاح لأن الاصلاح يفقدهم الأمل فى ترويج الدعوة الى الخراب ·

فهو أعدى لهم من الظلم والفساد ·

وهم اليوم يضاعفون نشاطهم لأن حساب « المقاولة » التى يؤجرون عليها يقترب فى أول الشهر القادم ، وهو اليوم الذى يسمونه بعيد الصعاليك ·

ولكنهم من قبل هذا نشطون ·

وسينشطون غدا كلما وسعهم النشاط ، وكلما ضاعف المسؤولون نشاطهم فى سبيل الاصلاح ·

فاذا اشتد البحث عنهم فلتكن شدته فى أعقاب كل مشروع من مشروعات الطمأنينة والرخاء · ولكن الباحثين عنهم سيحثون حتى لا يجنوهم فى يوم من الأيام ، وهو اليوم الذى تستقر فيه الطمأنينة ويعم فيه الرخاء ·

لينين فوق الشبهات ؟!

من الخطط المعروفة عن الدعاة الشيوعيين أنهم يحاولون جهدهم أن يدسوا لهم أصبعا أو أصابع عدة فى كل مؤسسة عامة تصلح لنشر الدعوة أو لتوجيه الآراء ·

وفى مقدمة المؤسسات العامة التى يعنون بها نقابات العمال ومعاهد التعليم ومكاتب الصحافة والاذاعة ·

وقد يقع موقع الغرابة عند بعض الناس أن يعلموا أن سماسرة الدعوة الشيوعية لا يغفلون عن السجون لبث دعوتهم بين نزلائها من المحرمين · لأن تعويلهم على نفايات المجتمع دائما أكبر من تعويلهم على الطوائف المحصنة فيه بالتربية والمعرفة والاخلاق ·

وليس فى ميسور هؤلاء السماسرة بالبداهة ان يسخروا الرؤساء والمديرين كلما أرادوا أن يدسوا أصابعهم فى احدى المؤسسات التى تعنيهم · ولكنهم اذا عجزوا عن تسخير رؤسائها ومديريها كان ذلك أدعى الى محاولة « التسخير » من ناحية أخرى ، وهى ناحية الأتباع وصغار المرؤوسين ·

ونحن اليوم فى حرب مع الدعوة الشيوعية لا ينبغى أن تهدأ أو تتوانى قبل القضاء عليها ، فكل معرفة بوسيلة من وسائلها ، أو خطة من خططتها ، هى سلاح لا غنى عنه فى هذا الكفاح بين الانسانية والبهيمية ، وبين النظام والخراب ·

نقدم هذا التمهيد لأننا نرى فى كثير من الأحيان أخبارا فى بعض الصحف التى لا تنالها الشبهات يستعصى فهمها بغير التنبيه الى هذه الحقيقة · وان وقف التنبه الى هذه الحقيقة · وان وقف التنبه اليها عند حدود الظن والاشتباه ·

وآخر مثال على ذلك أننا قرأنا فى الصحف برقية من لندن تشتمل على خلاصة رأى الفيلسوف الانجليزى برتراند رسل فى لينين زعيم الشيوعية ، وهو ترديد لبحوثه المشهورة فى المذهب كله وفى دعاته المعاصرين على الخصوص ، وجملة القول فى رأى هذا الفيلسوف الكبير أن تفكير الداعية الشيوعى ينم على التعصب وضيق الأفق والاقدام على الشرور أو « التشيطن » كما يسميه بأسلوب المجاز Diabolism

---

الأساس فى ١٩٤٩/٦/٢ ·

قرأنا البرقية فى احدى الصحف التى لا تنالها الشبهات كما قلنا فاذا هى تنشرها بهذا العنوان : « كان لينين متهورا ··· » وتشفعه بعلامتين كبيرتين للتعجب ·· ثم تروى رأى برتراند رسل بعنوان « مزاعم فيلسوف انجليزى معاصر ··· » !

فكدنا لا نصدق أننا نقرأ هذه العناوين فى صحيفة مصرية لا تدين بمذهب من هذه المذاهب الهدامة ·

لأن وصف لينين بالتهور فى دعوته قد يكون أعجوبة فى نظر الصحافة الروسية وما اليها ·

ولان كلام عظيم من عظماء الفكر كبرتراند رسل قد يوصف « بالمزاعم » عند من يعتقدون أن لينين فوق منال الشبهات والتهم وان الكلام عنه لا يستحق أن يوصف بأكثر من « الزعم » فى نظرهم ولو صدر من رجل كذلك الفيلسوف الكبير ·

أما أن نتطوع بتنزيه لينين عن الشبهات والاستخفاف بحكم برتراند رسل عليه وعلى أمثاله فذلك هو الأمر المستغرب ، فى صحافة لا تدين بمذهب الزعيم الشيوعى ، ولا تحمل ضغنا لمن يخالفه ويعزو دعوته الى التهور وضيق الحظيرة وسقم الوجدان ·

ومن هو هذا « الزاعم » المزعوم ؟

هو العالم الذى لا تعلو مكانته فى العلوم الرياضية والطبيعية والمباحث الفلسفية مكانة مفكر بين العلماء الأحياء فى العصر الحديث ·

هو الرجل الذى لا ترقى الشبهة استقلاله فى الرأى وجرأته على اعلان الحقيقة كما يراها ، لأنه ـ وهو سليل بيت من بيوت الدوقات فى البلاد الانجليزية ـ ينعى على الاستعمار البريطانى ويتمنى زوال الامبراطورية البريطانية ويقول ان زوالها نعمة عليها وعلى الانسانية بأسرها ·

هو الرجل الذى أنحى باللائمة على اللورد جراى لسعيه فى الاتفاق الانجليزى الفرنسى عن مصر ومراكش ، وقال يومئذ أن هذا الاتفاق هو المقدمة المحتومة للحرب العالمية ·

هو الرجل الذى استقبل السجن والفصل من منصب الأستاذية لأنه عارض سياسة الحكومة الانجليزية جهارا والحرب قائمة على سوقها ·

هو الرجل الذى يرجع الى آرائه فى مذاهب الاجتماع ومناقشة القادة السياسيين وتقوم آراؤه فيهـم على دراسـة « طوفائية » ومعرفة شخصية ببعضهم ، ومنهم لينين ٠

فاذا كان رجل كهذا يبدى رأيا فى لينين فلا يعطى حقه من الاحترام فى صحافتنا المصرية ، فعلى أى رأى من الأراء تعول الصحافة المصرية لمعرفة الحقائق عن مذاهب الهدم والفوضى ؟

★★★

نعود فنقول أن أصحاب الصحيفة التى نشرت الخبر على هذه الصورة المستغربة لا تمسهم الظنون فى ترويج مذهب من مذاهب الهدم والتخريب . ولا يخطر على البال أنهم يقبلون مذهبا كهذا فضلا عن تحسينه والسخرية من ناقديه ٠٠٠

ولكن الغرابة تزداد بهذا فى الواقع ولا تنقص ٠ فانهم خليقـون أن يجنبوا أنفسهم احتمال هذا الوزر سواء رجعت الشبهة فيه الى سوء تدبير أو سوء تقدير ٠

الفكرة بالفكرة والجريمة بالعقاب

أفضى صاحب المعالى وزير الدولة الاستاذ مصطفى مرعى بك بحديث الى بعض الصحف تكلم فيه عن المذاهب الهدامة فقال ما فحواه انها فكرة تحارب بفكرة ٠

ومما لا شك فيه أن الفكرة انما تحارب بالفكرة كما قال الاستاذ الالمعى وزير الدولة ، لان الاكتفاء فى محاربة الفكرة بمجرد الزجر والمصادرة قد يعززها ويقويها ولا يفلح بأية حال فى استئصالها والقضاء عليها ٠

ومما لا شك فيه أيضا أن بعض شبابنا المصريين الذين تيسر للدعاة أن يستميلوهم الى الشيوعية أو الى بعض الحركات الدينية قد مالوا الى تلك المذاهب عن اقتناع بصحتها وفائدتها للأمة المصرية أو للانسانية عامة ٠

ومن هؤلاء الشبان من استماله الدعاة الى الشيوعية خاصة من جانب الرحمة والعطف على المستضعفين ، لاعتقادهم أن الشيوعيين قوم ينصفون الضعفاء والفقراء وينشدون الخير والاصلاح ٠

ومن هؤلاء الشبان من استماله الدعاة الى الحركات الدينية ، باستثارة الحماسة التى طبع عليها الشباب وتوجيهها الى غير وجهتها القويمة ٠

فنشر الفكرة الصحيحة هو العلاج الناجع بل العلاج الوحيد ـ لهداية هؤلاء الشبان المضللين ٠

ونعتقد أن هذا العمل ـونعنى به نشر الفكرة الصحيحة عن المذاهب الهدامة ـ ليس بالعمل العسير على الدولة المصرية ولا على ذوى الآراء من المصريين ٠ لأن كشف الأخطاء الفكرية فى تلك المذاهب أهون شىء على من عرفها من مصادرها ، وأهون شىء على من أخلص النية فى طلب الوصول الى حقيقتها ٠

ويكفى تلخيص الشيوعية كما شرحها أئمتها فى عهد كارل ماركس ليفهم المخدوع فيها أنها نقمة على الناس أجمعين ، وأنها لا تنصف الضعفاء أو الفقراء ولا توجه جهودها الى غاية قبل هدم الحضارة الانسانية وتمزيق كل ما فيها من أواصر الاخلاق والآداب ٠

الأساس فى ١٩٤٩/٨/٣ ٠

جرائيم الشيوعية

رشحوا رجلا للولاية عند عمر بن الخطاب فوصفوه بأنه « رجل لا يعرف الشر » فقال عمر رضى الله عنه كلمته المشهورة :

« ذلك أحرى أن يقع فيه » ٠

وما قاله الفاروق عن ذلك الرجل يسرى على كل جاهل يتصدى لشر من الشرور ، فانه ان لم يقع فيه فهو ولا ريب عاجز عن القضاء عليه ٠

وفى مصر تتصدى لمقاومة الشيوعية وزارة يرأسها رجل لا يوجد فى داره كتاب عن مسألة واحدة من المسائل العالمية التى تعد الشيوعية اليوم فى طليعتها ويعاونه أناس لم يفقهوا عن حقيقة هذه الدعوة شيئا غير ما يقرأونه فى الصحف المصرية عرضا أو ما يقرأونه فى منشورات الدعاة التى تصل الى ايديهم حينا بعد حين ٠ فهم يتكلمون عن خطر الشيوعية كأنهم يتكلمون عن الجن أو جزائر واق الواق ، ويعملون كل ما يمهد الطريق للشيوعية وهم يحسبون أنهم يأخذون عليها منافذ الطريق ٠

قال رئيس الوزارة المصرية (١) مرة أو عدة مرات : أن خطر الشيوعية بعيد عن مصر لأنها تناقض دين الاسلام ، وقال غيره ان هذا الخطر بعيد لأن نظام الأسرة عريق بين المصريين ، والشيوعية تهدم الأسرة من أساسها وتنكر الميراث والتوريث ٠

وكل هذا كلام أناس يجهلون تاريخ الشيوعية القريب وهو فى بعض الأحوال لا يعدو تاريخ السنة الماضية أو تاريخ بضع سنوات معدودات ٠

فالصينيون يقدسون الأسرة ويبلغ من تقديسهم اياها أنهم يعبدون اسلافهم وأن الارباب عندهم أجداد طال عليهم القدم وهم مبجلون معظمون فارتفعوا الى مقام الالهة فى السماوات العلى ، وسمى عاهلهم الأكبر « بابن السماء ! » فهل اعتصمت الصين لاجل هذا من الفتنة التى جاءتها من روسيا الحمراء ؟ وهل اعتصمت منها روسيا نفسها وهى بلاد اشتهرت بالتدين الشديد ومضت عليها قرون وهى لا تؤمن الا بالأب الكبير فى السماء والأب الصغير فوق هذه الغبراء ؟

الأساس فى ١٩٥١/١/٢٩ ٠

(١) هو مصطفى النحاس باشا ٠

ان عامة الناس حين يستمعون الى الدعوة الشيوعية لا يفتحون كتبها ليوازنوا بينها وبين كتب الدين ثم يقبلون ما يقبلون ويرفضون ما يرفضون . ولكنهم يقبلونها لانهم يرفضون الحالة التى هم فيها ولا يبالون ما يكون اذا تغيرت هذه الحالة الكريهة كيفما كان التغيير . ولو كانت الشيوعية لا تنتشر بين الناس الا بمقدار مالها من قوة البرهان العلمى والحجة المعقولة لما آمن بها أحد ولا صلحت للأخذ والرد فى معرض المذاهب والآراء . ولكنها تنتشر كما ينتشر الوباء حيث توجد جراثيمه . وليس لها من جرثومة أقوى من جرثومة السخط كائنا ما كان سبب السخط بين الجماعات .

ويخطىء من يظن أن السخط الذى يمهد للشيوعية راجع كله الى الحرمان والعجز عن تحصيل القوت . فهذا ولا شك سبب من أقوى الأسباب أو على رأس جميع الأسباب التى تثير نفوس الساخطين . ولكن الحرمان قد وجد قديما ولم توجد معه الشيوعية كما وجدت فى العصر الحديث . وانما توجد الشيوعية حين يقترن الحرمان بفقدان الثقة وضياع الأمل فى العدل والاستقامة ونزاهة الاحكام . فليس الشيوعى شيوعيا على قدر حرمانه وتعسر معيشته بل هو شيوعى على قدر شكواه من الظلم وقنوطه من صلاح الأمور وتشتد مرارة الشكوى بطبيعة الحال اذا اعتقد الشاكى أنه محروم وأنه مع حرمانه مظلوم .

هذه هى الجراثيم التى لا يفلح أحد فى القضاء على الشيوعية ما لم يفلح أولا فى القضاء عليها . فهل تفلح الوزارة النحاسية فى القضاء على تلك الجراثيم ؟ وهل من القضاء على جراثيم الشيوعية ان يلمس الناس سيطرة أصحاب الملايين التى لا يقف فى طريقها قانون ولا دستور ؟ وهل من القضاء عليها أن يقرأ الناس أسماء الأقارب ولأصهار والصنائع والمحاسيب فى كل أمر يصدر بالتعيين أو بالترقية أو بالترشيح لمناصب الدولة لغير كفاءة ولا اكتراث لمصلحة الحكم والمحكومين ؟ وهل من القضاء عليها المباهاة بالترف علانية وتكليف الخزانات العامة أو الخاصة نقل الفاكهة بالطيارة من قارة الي قارة فى الوقت الذى فرض فيه على الناس أن يصوموا عن الطعام ؟

ان اندفاع الجماهير الى الشيوعية أو سواها من مذاهب الهدم والانقلاب لا يأتى من دراسة المذاهب والموازنة بينها على روية وبصيرة كما يفعل العلماء أصحاب البحوث . ولكن الجماهير تطلب التغيير ولا تبالى ما يكون من عاقبة التغيير . وهى لا تطلب التغيير الا اذا سخطت على ما هى فيه فلا تستمع اذن لمرشد ولا نصيح . ولا تلقى بالها الا لمن يزين لها التهجم والاندفاع ويوافقها على الهدم والتخريب .

ان السخط هو جرثومة الشيوعية · وشر السخط فى هذا العصر مـا أجتمع فيه الحرمان وسوء الظن بمبادىء العدل والمساواة · فهل تستطيع الوزارة العاجزة أن تكافح الحرمان وهى ترجع بالشعب الى قيود الحرب بعد سنوات من توقف القتال ؟ وهل تستطيع وزارة المحسوبين والأقرباء أن تقضى على سوء الظن بمبادىء المساواة وتقدير الكفاءات والحقوق ؟ وهل تستطيع وزارة التعطيل أن تجمع بين تعطيل الأعمال الكبرى وتدبير الأعمال للعاطلين؟ وهل تستطيع وزارة المنجة والبطيخ والبيجامات المزخرفة أن تحث الناس على الشظف والقناعة والصبر عن الضرورات ؟ وهل يقضى على الشيوعيه فى عهد يتسامع فيه المصريون بأخبار المزارع والعمارات التى يشتريها هذا وذاك بمئات الألوف ؟

اذا كان المقصود هو نشر الشيوعية وبذر جراثيمها فـلا حـاجة الى مجهود آخـر غير الأمثـلة المحسوسة التى يلمسـها النـاس فى كل صباح ومساء · فأما اذا كان المقصود هو القضاء على جراثيم الشيوعية فزوال الوزارة النحاسية وزوال آثارها هو العلاج الأول الذى يتبعه علاج كثير · وكلما طال العهد بأساليب هذه الوزارة طالت بعدها فترة العلاج الى زمن مجهول · واسلم ما تكون العاقبة اذا وثقنا بالسلامة ولو بعد العلاج الطويل والعناء الشديد ·

استعمار القرن العشرين

بدأ الاستعمار الحديث فى القرن الثامن عشر ، ولكنه كان صورة جديدة من صور الاستعمار الكثيرة فى العصور الغابرة ، فان الاستعمار بجميع أغراضه قديم لم يخل قط من سيطرة حزبية أو غلبة سياسية أو سخرة اقتصادية ، وانما تتغير أشكاله وأساليبه ودعاواه من عصر الى عصر ، وقد تتغير فى العصر الواحد على حسب اختلاف الأمم التى تصيب بالاستعمار واختلاف الأمم التى تصاب ·

ولم يصعب على الناس فهم حقيقة الاستعمار منذ كان على عهود الدول الكبيرة التى سلفت فى التاريخ القديم · وحقيقته هى السيادة السافرة أو السيادة المقنعة ، ولكنها على الأغلب كانت من قبيل السيادة السافرة التى لا تحاول التقنع ولا ترى حاجة اليه · لأن حكم القوة كان شريعة مفهومة يخضع لها المحكوم من أبناء الأمة الغالبة كما يخضع لها المحكوم من أبناء الأمة المغلوبة ، فلم تكن بالغالبين حاجة الى التزويق والتزييف لادعاء حق من الحقوق الى جانب حق القوة الصريح ·

وربما كان الاختلاف الاكبر بين الاستعمار القديم والاستعمار الحديث محصورا فى الاختلاف بين السيادة السافرة والسيادة المقنعة · فان السيادة السافرة تنقص مع الزمن كلما عرف الناس حقوقا يدين بها السيد والمسود غير حق القوة وغلبة السلاح ، وتزداد ألوان السيادة المقنعة كلما احتاج الناس الى مسوغ متفق عليه يسوغون به استخدام القوة للسيطرة على الضعفاء أو لترجيح دعوى قوى على قوى آخر ينازعه فى ميدان الغلبة والاستعلاء ·

وكثرت أساليب السيادة المقنعة بعد منتصف القرن التاسع عشر فكثرت دعاوى المستعمرين التى يسوغون بها تسخير الأمم المغلوبة أو يسوغون بها الاستئثار بذلك التسخير · وتجمعها كلها دعوى واحدة يسمونها « أمانة الرجل الأبيض » ويزعمون أن أمانة التعمير واجب على الأمة المتحضرة نحو بأجمعها من نعمة العمار التى يستطيعها أهل الكفاية لها من المتحضرين فلا حاجة الى الاعتذار بغير عذر التعمير لمن يفتحمون ديار المتخلفين فى رتب الحضارة والعمران ·

مقدمة كتاب « الاستعمار الاقتصادى » تأليف زاوبرمان ترجمة الأستاذ محمد سامى عاشور (سلسلة كتاب الناقوس ـ سنة ١٩٥٦) ·

بغير عذر التعمير لمن يقتحمون ديار المغلوبين المتخلفين فى ركب الحضارة والعمران ·

أما أمانة التحضير ـ أو تعليم الحضارة ـ فهى كأمانة القاصر فى عنق الوصى عليه ، وهى بهذه المثابة عذره الذى يعتذر به فى سلب الحرية واقتحام حوزة الشعب الضعيف ·

كانت أمانة التعمير ، ومعها أمانة التحضير ، هما القناع الذى تسترت به السيادة السافرة منذ بداءة الاستعمار الحديث فى القرن الثامن عشر الى منتهاه الذى أوشك أن يصير اليه فى هذا القرن العشرين ، ولكنه قناع لم يزل يشف مع الزمن حتى بلى وسقط عن الوجوه والضمائر ولم تبق فيه بقية تستر ما وراءها ، وكان جيل واحد بعد الجيل الذى تلقى صدمات الاستعمار الأولى كافيا لظهور الحقيقة فى أمر هذا الاستعمار الحديث من وراء كل دعوى ومن وراء كل قناع ·

وتعددت العوامل التى اشتركت فى كشف القناع عن حقيقة هذا الاستعمار من أواسط القرن التاسع عشر الى أوائل القرن العشرين ·

ومن هذه العوامل ما يرجع الى المستعمرين أنفسهم فى شؤنهم الداخلية وشؤنهم الخارجية التى تختلف بينهم باختلاف الأوطان والأقوام والعلاقات ·

ومن هذه العوامل ما يرجع الى الأمم المغلوبة على حسب نصيبها من النهضة والتقدم ·

ومن هذه العوامل ما يرجع الى أطوار الزمن عامة ولا دخل فيه لارادة أحد من الغالبين أو المغلوبين ·

وبعض العوامل التى ترجع الى المستعمرين أنفسهم أنهم أثاروا فى شؤنهم الداخلية مسائل الحقوق والحريات ومبادىء الحكم بموافقة المحكومين ، وظهر منهم من لا مصلحة له فى الفتح والتسلط وانفاق الأموال على التسليح والاستعداد للقتال ·

وبعض هذه العوامل أن الدول المستعمرة كثرت وتنافست ووقف بعضها لبعض بالمرصاد طمعا فى المساومة وتبادل الغنائم والصفقات ·

وبعض هذه العوامل أن هذه الدول قد احتاجت فى منازعاتها الى المعونة من ابناء الأمم المغلوبة ، فلم يكن لها مناص من الاعتراف للأمم المغلوبة ببعض الحقوق ومن النزول قليلا أو كثيرا عن دعوى الامتياز التى احتكرها القائلون « بأمانة الرجل الأبيض » حقبة من الزمن ·

اما العوامل التى ترجع الى الأمم المغلوبة فهى الثقة بنفسها وقلة الثقة بالمسيطرين عليها ، فانها مع التقدم فى المعرفة والحضارة أحست بحقها فى الحيـاة وأفاقت من الرهبة التى ملـكتها لأول وهلة من جانب المستعمرين الأقوياء ، وأنفقت من مذلة الخضوع ومهانة الحرمان ، ولا سيما الأمم التى تعرف لها تاريخا عريقا تتعالى به على سادة اليوم وتستمد منه الثقة بصلاحها للحرية والسيادة ٠

وأما العوامل العامة التى ترجع الى أطوار الزمن ولا دخل فيهـا لارادة الغالبين والمغلوبين فهى زوال مزايا الاستعمار التى من أجلها يتجشم المستعمرون أعباء الفتوح وتكاليف المحافظة عليها ٠ فان الموازنة بين كفتى الربح والخسارة فى حساب الاستعمار لم تزل تنقص من جانب الربح وتزيد فى جانب الخسارة حتى أصبحت الصفقة كلها أو كادت أن تصبح فى عداد الصفقات الخاسرة التى لا تساوى تكاليفها ومشقاتها ٠

خمسون سنة منذ أواسط القرن التاسع عشر الى أوائل القرن العشرين كانت كافية كل الكفـاية لابراز هذه الحقائق واسـقاط تلك الدعـاوى التى تذرعت بها السيادة السافرة زمنا للتستر بهذا القناع او بذاك من قنع التسويغ والتبرير ٠٠ فليس فى العالم اليوم من يخضع للاستعمار عن خديعة فيـه أو عن جهـل بحقيقة أمـره ، الا أن يـكون فى الدرك الأدنى فى الجهـالة والهمجية ٠ وأكثر من ذلك أنه لا يوجد اليـوم بين المستعمرين أنفسـهم من يطمع فى خداع الناس بالدعاوى التى كانوا يكررونها ولا يسأمون تكرارها الى سنوات قريبة بعد الحرب العالمية الأولى ٠ فان لم يكن هذا الاستعمار اليوم فى دور الإفلاس التام فهو فى دور التصفية العاجلة قبل فوات الأوان، ولعل دلالة الأرقام هنا أوضح من كل دلالة فى بيان تراجع الاستعمار واقتراب اليوم الذى يصير فيه الى منتهاه ٠ فان الأمم التى كانت مسلوبة الحق فى الحـكومة الذاتية كانت قبـل نهاية القرن التاسع عشر تعد بمئـات الملايين فاصبحت اليوم وهى لا تزيد على خمسين مليونا فى القارات الخمس ، ومن كان منها خاضعا فى حكمه للسيطرة الأجنبية فليس فى وسع هذه السيطرة أن تنكر عليه حق المشاركة فى الأمر وحق التطلع الى المزيد من الاستقلال ٠

افلس الاستعمار الحديث أو كاد ، ومن الافلاس أنه يبقى حيث بقى غير مجهول ولا مخدوع فيه ، وأنه هو نفسه يعلم أن الخديعة بعد اليـوم لا تتيسر له ولا تجديه ٠

الا أن القرن العشرين قد تمخض عن استعمار آخر من نوع غير أنواع الاستعمار التى عرفها الناس فى التاريخ القديم والتاريخ الحديث ، وهـو

ـ لحداثته ـ لا يزال مجهول الحقيقة عند الكثيرين طامعا فى خديعة العقول حيث انكشف القناع عن كل خديعة استعمارية تلبست على الناس فى العهود الأولى ، وفى هذه العهود ٠

وشر ما فى هذا الاستعمار الوبيل أنه كالمرض الذى يسلب المريض به رغبة العلاج أو رغبة الشفاء ، لأنه يمسخ ما بقى فيه من معنى الآدمية فيحيله الى حيوان لا خلاق له ولا فارق بينه وبين سائر العجماوات ، الا أنه يستبقى رذائل الانسانية من الخسة والحسد ولؤم البغضاء والقحة التى عوفيت منها فصائل الحيوان ٠

ذلك هو استعمار المذاهب الهدامة أو مذاهب المادية التى اشتهرت فى الزمن الأخير باسم الماركسية أو الشيوعية ، فانه استعمار يجمع كل شرور الاستعمار القديم والحديث ويزيد عليها ذلك المسخ والتشويه الذى يصاب به الانسان فيهبط الى حضيض السوائم العجماء ٠

★★★

ان كلمة الاستعمار باللغة العربية تشمل أنواعا من الاستعمار مختلفة الأسماء فى اللغات الاوربية ، ولكنها تتفق فى السخرة على وجه من الوجوه٠

فهذه الكلمة تطلق على استعمار التوطن أو الاستيطان
Settement or colonization

وتطلق على استعمار التسلط Imperialism

وتطلق على استعمار الضم أو الاستلحاق Annexation

وتطلق على استعمار الاستغلال Explaitation أو السيطرة الاقتصادية
Economic Imperialism

وتقابلها فى جملتها كلمة « الامبريالزم » ٠٠٠ وهى فى أصل استعمالها الحديث تدل على الدولة الواسعة ذات الأطراف المترامية والرعايا المتعددة من الشعوب المختلفة ، ولكنه اجمال يتبعه تفصيل كثير ٠

فاستعمار التوطن هو الاستعمار الذى يقوم على جالية من الأمة الغالبة تتخذ من بلاد الأمة المغلوبة وطنا تقيم فيه أو تتردد عليه وتستأثر بمرافقه ٠

واستعمار التسلط أن تبسط الدولة حكمها على أمم كثيرة فى بقعة واحدة أو فى بقاع متباعدة ٠

واستعمار الضم أو الاستلحاق أن تدمج الدولة الغالبة أمة أخرى فى حوزتها بحدودها الجغرافية أو حدودها السياسية ٠

واستعمار الاستغلال أن تتخذ الدولة فى بلد من البلاد سوقا محتكرة لشراء الخامات منها وبيع المصنوعات فيها أو تسخير الأيدى العـاملة من ابنائها ، وقد يدخل فى هذا الاستغلال أن تأخذ الدولة الغالبة بزمام الثروة في البلاد المغلوبة بوسيلة من الوسائل المختلفة كادارة المصانع او اقراض الديون أو ربط المعاملات بالروابط التى تقيدها ولا تطلق لهـا الحرية فى اختيار معامليها ٠

وهذه الأنواع المتعددة قد تلتقى فى نظام واحد وقد تتفرق فلا يوجد منها غير نوع أو نوعين من سـائر أنواعهـا ٠ ولكنهـا مجتمعة كلهـا فى الاستعمار الشيوعى الذى يلتقى فيه استعمار التوطن واستعمار التسـلط واستعمار الضم واستعمار الاستغلال والسيطرة الاقتصادية ، ويزيد عليه فى جميع هذه الحالات أنه يحرم الشعب المسخر كل وسيلة تمكنه من طلب الحرية ويمسخ الشعور الانسانى فيه ليصبر على الاستعباد ، عجزا منه عن طلب الحرية أو قناعة مما يثار فى نفوسه من شهوات الضغينة والحسد وهى أقـوى فى نفوس الهمل وأصحاب الهمم الساقطة من نوازع الحـرية والكرامة ٠

ولا تحتاج السياسة التى تحقق هذه الاغراض جميعا الى براعة فائقة ولا الى قدرة خارقة فى الدولة المتسلطة على الشعوب المغلوبة ، بل يكفى أن تبادر هذه الشعوب جميع القوى الصالحة لقيـادة الشعب وتوجيهه فى حركة التحرير فلا يبقى فيه غير الهمل المضطرين الى الخضوع او الخاضعين باختيارهم لأنهم يجهلون قيمة الحرية ويتعوضون منها بما يهتاج فى نفوسهم المستذلة من شهوات الضغينة والتطاول على من كانوا ينظرون اليهم نظرة الحسد ويرضيهم ان ينظروا اليهم نظرة الشماتة ٠

ولا توجد اليوم فى الكرة الأرضية مساحة من الأرض أوسع مـكانا واكثر سكانا من المساحة التى يشغلهـا استعمار الشيوعية فى القـارتين الأوربية والآسيوية ، ولا يوجد فى أنواع الاسـتعباد ما هو أشد عسـوة من الاسـتعباد الذى يخضع له المسخرون لهذا الاستعمار بمختلف الأسـماء والأنظمة والعناوين ٠٠٠٠ فهناك بلاد يطلقون عليها اسم التوابع أو الاذناب Satellites وبلاد يطلقون عليها اسم الجمهوريات المتحدة United Republics وبـلاد يطلقـون عليهـا أسـم أقـاليم الحـكم الذاتى Autonomus Regions وما شاكل كل هذه الاسماء ٠٠ وكلها لا تملك من حرية الرأى شيئا الى جانب الدولة الكبرى التى تشرف عليهـا ، فـلا تسمع مرة واحدة أن حكومة تابعة قد أجترأت على معارضة الدولة المتبوعة فى رأى من الآراء التى تعلنهـا ، ولا يحدث مرة واحـدة ان امـة من أمم

المستعمرات الشيوعية كان لها صوت فى هيئة الأمم المتحدة يعارض صوت الدولة الكبرى فى مسألة هامة من مسائل السياسة العامة ، ولا يتفق يوما أن تقول المجر أو بلغاريا أو رومانيا أو بولونية برأى يخالف الرأى الملى عليها من سادتها كما اتفق احيانا كثيرة ان تختلف آراء كندا والهند واستراليا وآراء انجلترا أكبر الدول الاستعمارية فى خارج الكتلة الشيوعية • واذا كان هذا مبلغ الاستعباد المسلط على الأمم المستقلة المسماه بالتوابع أو الأذناب بعد أن وصلت الى درجة من الشخصية الدولية تبيح لها أن تتمثل فى هيئة الأمم المتحدة ـ فقل ما شئت فى الأمم الأخرى التى لم تبلغ هذا المبلغ ولم تستقل هذا الاستقلال ولم تعرف فى محيط السياسة الدولية « بشخصية » متميزة فى حاضرها الراهن أو فى ماضيها القريب •

وأعسر من الحرية فى الحكومات البارزة أمام أنظار العالم باسره ـ ان تتاح الحرية الضرورية أو الحرية القومية فى داخل البلاد المغلوبة وهى مزوية مطوية وراء حدودها ، محرومة من وسائل الاتصال بينها وبين ارجاء العالم الخارجى ولو كانت الى جوارها • فلم يحدث قط فى داخل تلك الأمم ان تيسرت وسيلة من وسائل المعارضة لأحد من أفرادها أو لطائفة من طوائفها • وسيان أن تكون هذه المعارضة حاصلة ـ على فرض حصولها ـ ثم لا تصل أخبارها الى خارج حدودها وان تكون هذه المعارضة معدومة ممتنعة كل الامتناع ، فانها فى الحالتين تدل على حالة من الاستعباد ومسخ الآدمية لا نظير لها ولم يكن لها نظير قط فى عهد من عهود الاستعمار القديم أو الحديث •

وقد كانت ادارة الأملاك الواسعة تتطلب فى الامبراطوريات الكبرى كثيرا من البراعة السياسية ، وكثيرا من النفقة على العدد الحربية ، لأن الغالب على تلك الامبراطوريات أن تكون الأمة صاحبة السيادة أقل عددا من الأمم الخاضعة لها ، مع تباعد المسافة بين أطراف الدولة وضرورة الوصل بينها بالمواصلات المأمونة والمعاقل الحصينة التى تقام فيها الحاميات المتأهبة على الدوام لقمع الفتنة ومنع العصيان ، ولا يتأتى للأمة المتسلطة أن تطمئن الى مواصلاتها الا بتنظيم العلاقات بينها وبين رؤساء الأمم التى تحكمها وتدخلها فى حوزتها • فمنها من تحالفه أو تعاهده ، ومنها من تراقبه وتقيم الحراسة عليه ، ومنها من تسمح له ولبلاده بقسط من حرية التصرف والادارة الحكومية ، وكلها تتطلب كما أسلفنا كثيرا من البراعة السياسية وكثيرا من النفقة على العدد الحربية تفوق طاقتها مع قلة عددها بالنسبة الى عدد رعاياها فى الأطراف المترامية •

أما الامبراطورية الروسية فقد أغناها عن هذه البراعة السياسية وعن الكلفة التى لا تتناسب مع عدد أبناء الأمة الحاكمة أن هذه الامبراطورية

تتولاها أمة تزيد على مائة وثلاثين مليونا بين أبناء روسيا الكبيرة وأبناء روسيا البيضاء ، وانها فى موقعها من الأرض تتوسط بين القارتين وتلتقى حدودها وحدود أملاكها فى الشرق والغرب والجنوب · فهى من جهة السكان أكثر عددا من رعاياها ، ومن جهة المواصلات مستغنية عن الجهود الكثيرة التى تبذلها الامبراطوريات لضم أوصالها والتقريب بين أطرافها ، ويضاف الى ذلك أنها لا تبقى فى البلاد الخاضعة لهـا أحدا يقدر على محـاسبتها وقيادة أمته فى حركة من حركات التحرر أو المقاومة . فلا حاجة لها الى المقدرة السياسية فى ربط العلاقات بينها وبين الأمم المغلوبة بعد تجريد هذه الأمم من ذوى الرأى والزعامة فيها · ولهذا امكنها بغيـل من المشـقة أن تفرض على الأمم كل ضرب من ضروب الاستعمار تختاره فى كل قطر من الأقطار على حسب الحالة التى توائمها وتخدم مآربها وتستديم لها نفوذها ، واستطاعت أن تجمع فى أملاكها الواسعة بين استعمار التوطن ، واستعمار التسلط ، واستعمار الضم والادمـاج ، واستعمار الاسـتغلال والسيطرة الاقتصادية ، وأن تلقى من المقاومة أقلها وأضعفها مع عنفها وقسوتها فى اخضاع رعاياها ، بل هى تلقى المقاومة القليلة بعنفها وقسوتها وعملهـا الحثيث على استئصال كل قوة صالحة لمقاومتها ، فلا تبقى فى وطن من الأوطان الا قطعانا سائمة من الهمل الذين لا يحسـون الهـوان ولا يقدرون على شىء اذا أحسوه ·

اسـتعمار التوطن

وليس فى أرجاء هذه الامبراطورية قطـر واحد لا يتعرض لنكبـات الاستعمار بجميع أنواعهـا وضروبها · فـكلها عرضة لاسـتعمار التوطن واستعمار التسلط واستعمار الضم والادماج واستعمار السيطرة الاقتصادية ··· الا أنها تتفاوت فى المقدار مع خضوعها جميعا للسيادة المسلطة عليها ، وأكثر ما يكون استعمار التوطن فى الاقاليم الاسيوية التى تتسع مساحاتها وتشبه الأقاليم التى نشأت فيها الشعوب السلافية لأول عهدها · فلا تزال أبـواب الهجرة الى تلك الأقـاليم مفتحة لأبنـاء روسـيا الكبيرة وروسـيا البيضـاء دون غيرهم من رعايا الامبراطورية · ولا تزال الحقوق المخـولة لهؤلاء المهـاجرين تزداد وتتقرر وتأخذ نصيبها على هواها ، لأنهـا حقوق تدعمها قوة الدولة أمام حقوق « اسمية » مبذولة لابناء البلاد الاصلاء ولا يوجد من يدعمها أويجسر على المطالبة بدعمها ·

وتدخل فى الامبراطورية الاسيوية بلاد الشركس وارمينية واذربيجان والقـازاق والتركمـان والازبك والجرغيز والجاديق والبشكير والداغستان وبعض القبائل التى تنتمى الى ارومتها ، وكلها ــ ما عدا أرمينية ــ بـلاد

اسلامية تتكلم بلهجة من لهجات التركية الطورانية ، ولكنها تتمزق وتتفرق على هذا النحو لتشتيت شملها ومنع اتحادها ومقاومتها ٠

فظاهر الأمر أن الدولة الغالبة تبقى كل شعب من هذه الشعوب فى حدوده اعترافا له بالحقوق القومية ، وباطن الأمر انها تبقيهم متفرقين متنازعين ليحتاج كل منهم الى الدولة الحاكمة فى دفع جيرانه وفض منازعاته، ولينتهى بها المصير جميعا الى الفناء فى الدولة الحاكمة على توالى الأيام مع تسليط عوامل الضم والادماج عليها بغير وناء وبغير مقاومة أو بغير قدرة على المقاومة اذا وجد فى تلك البلاد المغلوبة من يريدها ٠ ولولا هذا التمزيق والتفريق لاجتمع فى هذه البلاد شعب واحد يدين بعقيدة واحدة ويتكلم بلهجات متقاربة من لغة واحدة ويرجع الى تراث واحد فى تاريخ الاسلاف ومعالم الأوطان ٠

ويؤخذ من الاحصاءات الميسورة أن نسبة الروس الى سكان البلاد الاصلاء تزداد من سنة الى سنة باطراد ، وان نسبة أبناء البلاد الاصلاء تهبط كلما أرتفعت نسبة المهاجرين اليهم من أبناء الدولة الروسية ، ويستدل على هذه الزيادة بالأرقام المأخوذة من احصاءات الحكومة القيصرية ومن جداول الناخبين فى عهد الحكومة الشيوعية ٠

ونذكر مثلا واحدا من امثلتها فى بلاد القازاق التى كانت نسبة الروس فيها عشرين فى المائة سنة ١٨٩٧ فأصبحت أربعين فى المائة سنة ١٩١١ وأصبحت خمسة وثلاثين فى المائة سنة ١٩٢٦ بعد الانقلاب الشيوعى وتوقف الحكومة الشيوعية عن تنفيذ الخطط المرسومة لاختلال أحوالها واشتغالها بالمنازعات الداخلية ، ثم عادت هذه النسبة الى الصعود فارتفعت الى سبعة وأربعين فى المائة سنة ١٩٣٩ وأرتفعت الى تسعة وأربعين فى المائة سنة ١٩٥٠ آخر السنين التى عرفت احصاءاتها ، ولعل الزيادة الآن تزيد على خمسين فى المائة وتمضى فى الارتفاع سنة بعد سنة على هذه الوتيرة (١) ٠

ويكفى بغير حاجة الى الأرقام أن نعلم نتيجة استعمار التوطن اذا قامت به دولة تزيد عدتها على مائة وثلاثين مليونا فى أقاليم متفرقة يقل سكان بعضها على مليونين ٠ فان هذه الدولة لا تلقى عناء يذكر فى تغليب أبنائها على أبناء البلاد الأصلاء ، وبخاصة اذا علمنا أن أبناء البلاد الأصلاء

(راجع كتاب الامبراطورية السوفيتية تأليف أولاف كارو ٠

Soviet Empire by Olaf Caroe

لم يبق فيهم غير قطعان من الهمل السائمين تغزوهم طائفة منظمة من حرب مقرر البرامج مرسوم الخطط معزز بسلطان الحكومة المسيطرة على أرجاء الامبراطورية برمتها • ويقال فى هذه الحالة أن أبناء البلاد الاصلاء هم من طبقة البرولتارية أى طبقة الصعاليك وأن أبناء البلاد الروسية الغالبية هم من أبناء هذه الطبقة فى أوطانها ، بل يقال أيضا أن هؤلاء الصعاليك جميعا متساوون فى الحقوق « الأسمية » أمام القانون والدستور • الا أن الحقيقة الواقعة تقلب هذه المساواة المزعومة رأسا على عقب وتضع النفوذ الأكبر فى أيدى الصعاليك الروس لأنهم حزب منظم أمام قطعان من الهمل ، ولأنهم يصولون بقوة الدولة ولا يجد أبناء البلاد الاصلاء قوة يصولون بها غير القوة التى يسمح بها السادة المتحكمون فيهم ••• وينتهى الأمر الى نقيض الغرض المطلوب من المساواة • لأنها تعطى الدخلاء الواغلين على البلاد جميع حقوق الأبناء الاصلاء ولا تعطى هؤلاء الأبناء الاصلاء حقا صحيحا من حقوق السيطرة والسيادة •

وكثيرا ما تحدث أذناب الشيوعية عن النفاق السياسى وحسبوه رذيلة محتكرة للاستعمار القديم ، وأنه فى الواقع لرذيلة الاستعمار كله قديمه وحديثه ، ورذيلة الاستعمار الشيوعى خاصة على أوفى نصيب •

فأى هندى ــ مثلا ــ كان يحمد للمستعمر البريطانى أن يعطى الانجليز حقوق المساواة فى البلاد الهندية ليصبح حقهم كحق رعاياهم فى الوطنية والنيابة وتمثيل الأمة والدولة ؟

لقد كانت هذه المساواة تستهدف من الهنود ــ بحق ودراية ــ لكل ما فى وسعهم من النقمة والاحتجاج ، لأنها تسلبهم ولا تعطيهم بل تعطى الغاصبين حقا مشروعا فى البلد المغلوب الذى يغتصبونه ويتسلطون عليه ••• ومع هذا يذيع المستعمرون الشيوعيون أنباء تلك المساواة المزعومة كأنها آية من آيات الحرية والسماحة وباعث من بواعث الحمد وحسن الأحدوثة بين الشعوب والحكومات •

★★★

وعلى الجملة لا يعرف فى القرن العشرين نوع من استعمار التوطن أعنف ولا أبلغ فى الاجرام من هذا الاستعمار الشيوعى فى الأقطار الآسيوية على الخصوص ، ولكنه على هذا العنف والاجرام لا يستوعب أعراض الاستعمار الشيوعى التى لم تنحصر قط فى غرض واحد ولا تزال كثيرة الشعب والطوايا فى كل مكان مع تفاوت المقادير أو الدرجات • فليست غنائم الجاليات المهاجرة كل ما يبتزه المستعمرون فى تلك الأقطار الآسيوية لأن هذه الأقطار كانت منذ عهد القيصرية مطمعا من مطامع الاستغلال

والابتزاز للدولة كلها وأصحاب الأموال فيها ، ولم يضعف هذا الطمع فى عهد الشيوعية بل اشتد وتفاقم بعد ظهور مناجم الثروة المعدنية فى كثير من تلك الأقطار . وقد جنت هذه الكشوف على أبناء البلاد فكانت نقمة عليهم وبركة على المستعمرين والمستغلين ، ولم يكن نصيب البقية الباقية من أبناء البلاد الأصلاء بعد التشريد والتنكيل خيرا من نصيب السجناء فى سجونهم التى تكفل لهم الطعام والكساء وتسومهم من أجله مشقة العبيد الأذلاء . وأن النقمة لنصيب كل قوم على قدر الطمع فى خيرات بلادهم والغنيمة التى يجنيها المستعمرون منها ومنهم . فقد شرح صاحب كتاب « هجرة القـازاق » بعض المصائب التى عاناها هذا الشعب فى سنة ١٩٤٨ من جرائر الثروة التى كشفت فى بلاده فاضطرته الى الهجرة حيثما استطاع الافلات من قبضة الرقباء والمتعقبين ... ومن هذه الأفواج التى خرجت من ديارها عشرون أسرة فارقت مواطنها ومواطن أبائها وأجدادها على غير هدى وهى لا تعلم لها مستقر تأوى اليه ، فلم يدعها زبانية الاستعمار تنجو بأرواحها الى حيث تلقى بها المقادير ، بل خرجوا وراءها بالطائرات يتعقبونها ويتصيدون أشتاتها فلم يبق منها أكثر من ربع عددها حين وصلت الى مكان تستطيع أن تقيم فيه عند الحدود الشرقية من كشمير ، ولولا هذه البقية لاختفى أثرهم كما اختفى أثر غيرهم ، أو استطاعت أبواق الدعاية أن تحسبها كلها أكذوبة من أكاذيب الاعداء كعادتها فى نفى كل خبر تنكره على نمط واحد بغير تصرف وبغير تنويع (١) .

ولو كانت الكشوف الجغرافية مما يتأتى انكاره أو اخفاؤه زمنا طويلا لانكر القوم كشوف الثروة المعدنية التى جرت هذا البلاء على تلك الشعوب المنكوبة بخيرات بلادها . ولكن الثروة المعدنية انشودة فخار يتغنى بها الشيوعيون لأنها قوام سياسة التصنيع وأساس الحضارة المثالية فى برامج الماركسين ، وقد تغنى بها بعض أنصـارهم فى كتـاب ألفوه عن « آسـيا السوفيتية » ليقولوا أن برامج التصنيع كانت نعمة وبركة على اتباع روسيا من الأسيويين . ومنهم شعب القازاق الذى فر من تلك النعمة ليشـقى فى مجاهل الغربة باختياره ... وعن خيرات هذا الشعب يقول كتاب آسيا السوفيتية :

« أن كثيرا من العلماء فى العهد القيصرى كانوا يرون أن أواسط آسيا لا تحوى من الثروة المعدنية شيئا يذكر ، فجاء علماء السوفييت وأثبتوا خطأ هذا الرأى ، ويظهر مبلغه من الخطأ اذا اعلمنا أن أرض القازاق أوفر فى البلاد الروسية محصولا من مستخرج النحاس والزنك والرصـاص ومعدن الخيوط الكهربائية . وأنها تأتى ثانية فى تقدير المستخرج من الذهب ومن

---

(١) كتاب هجرة القازاق . Kasak Exodus by Godfrey Lois

عنصر الموليبدنوم الذى يلغم به الفولاذ ومن القصدير ومن المرمر ، وانها الثالثة فى المحصول المستخرج من الفحم والبترول » ٠

ولا بد لهذه الانشودة من ذيل ينفى شبهاتها عن الذهن قبل أن يسبق اليه أن هذه الثروة المفاجئة كانت بلاء داهما على الوطن الذى ظهرت فيه ، فاذا بهذا الذيل يتراءى على الصفحة نفسها على النحو اللازم فى الموضع اللازم ٠٠ واذا بشاعر من شعراء القازاق يقول فى مجموعة نشرتها مطبعة الدولة بموسكو متغنيا بالقطار الذى يسمى هناك قطار الاتحاد : « أن اتحادنا قطار سريع يطير على القناطر والجسور ، ويطوى المروج الخضر بين البطاح الفيح ، وهذه أرضنا فى رخاء وشعبنا فى قوة وأباء ، حر كالسحاب فى الفضاء ، وكذلك يعلم الأعداء ٠٠٠ » (١) ٠

وعلى قارىء هذه الانشودة أن يصدق فى وقت واحد أن الهاربين من القازاق الى كشمير قد فروا من ديارهم لأنهم أحرار كالسحاب ٠٠ ! وان الناظم القازاقى ينظم حرا حين ينظم على أحدث الشروط الماركسية فى أدب التصنيع !!

ولكن القارىء الذى يأبى أن يصدق ذلك حرا مختارا ان يستطيع أن يصدق راغما أنه أمام استعمار كريه يفر منه من يفر ويبقى من يبقى تحت طائلته عاجزا عن الشكوى عاجزا عن السكوت مطالبا بأن يفخر ويترنم حيث يبرح لغيره أن يفزع ويبكى ، ومثل هذا الاستعمار لا يأتى ثالثا ولا ثانيا فى بلاء الوطن ولا فى التسلط ولا فى الاستغلاء والتسخير ، بل يأتى بينها جميعا أولا بغير نظير ٠

★★★

وغنى عن القول أن استعمار التسلط أو « لامبريالزم » لا يسمى بهذا الاسم لأن الباعث عليه محصور فى طلب السلطة والغلبة على الامم بغير فائدة يفيدها المستعمر من وراء الغلبة عليها ، سواء نظرنا الى الاستعمار القديم أو الى استعمار العصور المتأخرة ٠ فمهما يكن من ولع الأقدمين بالفتوح طلبا للمجد وطموحا الى العظمة والسيادة فهذه الفتوح لم تخل قط من منافعها المادية أو الحربية ، وأقلها نفعا ما يكون الباعث عليه حماية الحدود واقامة الحواجز بين الدولة وجيرانها القادرين على قتالها ٠

فاستعمار التسلط ينطوى على ضروب الاستعمار الأخرى ومنها الاستغلال والتسخير ، ولكن يتميز باسم خاص بين أسماء الاستعمار للدلالة

---

(١) كتاب آسيا السوفيتية تأليف دافيز ، ستريجر

Soviet Asia, by R.A., Davies and Steriger.

على كثرة الأملاك وسعة الأطراف · فلا تطلق كلمة الامبراطورية على الدولة التى تسيطر على قطر واحد أو أقليم صغير من الأرض تستغله وتسحر أبناءه، وانما تطلق هذه الكلمة على كل دولة كثيرة الأملاك واسعة الاطراف يخضع لها صنوف من الرعايا يختلفون أحيانا بالجنس واللغة أو يختلفون بالموقع الجغرافى والمعالم السياسية · ولهذا كانت روسيا الشيوعية من دول الامبريالزم لأنها تبسط حكمها على أصقاع مترامية الاطراف بين القارتين الأوربية والآسيوية · ومن البلاد التى تخضع لنفوذها فى أوربة بولونية وتشيكوسلفاكيا وبلروسيا - أو روسيا البيضاء - واستونيا ولاتفيا ولتوانيا والبانيا وبلغاريا ورومانيا والمجر وفنلاندا وطائفة من الاقاليم المنعزلة تسميها بمناطق الحكومة الذاتية ولا تعترف لها بالاستقلال الذى يخولها الانابة عنها فى المجامع الدولية ·

وهى - مع هذا تتبع فى سياسة الاعتراف للأمة بالاستقلال نفس الخطة التى اتبعها الألمان من قبلها - منتفعين بدعوى تقرير المصير فى تحقيق مآربهم الامبراطورية ، فربما اعترفت باستقلال البلد لتعزله من دولة أخرى أو لتنتفع بصوته فى المجامع الدولية أو لتوقع النزاع بينه وبين جيرانه وتضطرهم جميعا الى الاستعانة بها فى فض هذه المنازعات ، وقد عمد الألمان بعد الحرب العالمية الأولى الى دعوى تقرير المصير فخلقوا بين روسيا وبولونية أمة صغيرة سموها بالروس البيض White Rutheinans ليفصلوا بينها وبين بولونية من جهة ويفصلوا بينها وبين روسيا من جهة أخرى · وكذلك فعلت روسيا الشيوعية فى سياستها نحو هذه الأمة الصغيرة بعينها ، فانها بعد أن اعترفت سنة ١٩٢١ فى معاهدة ريجا Riga بحق بولونية فى حكم شطر من هذه البلاد عادت فى سنة ١٩٣٩ فاغتنمت فرصة الحرب لتجعل بلاد هذه الأمة وطنا مستقلا ينفصل من بولونية ويدين للشيوعية بالطاعة من وراء نقاب هذا الاستقلال المزعوم (١) ·

ولا توجد الآن فى العالم دولة استعمارية يخضع لسيطرتها الفعلية عدد من الأمم مختلفين فى أجناسهم ولغاتهم كهذا العدد الذى يخضع لسلطان الاستعمار الروسى بين تيوتون ولاتين ومغول سلافيين وغير سلافيين، ولا يوجد بين المستعمرات أمة مسلوبة الرأى فى السياسة العالمية والسياسة الداخلية كهذه الأمم التى لم تجسر واحدة منها قط على الافضاء فى المجامع الدولية برأى هام يخالف رأى سادتها المسلطين عليها ·

وبيت القصيد فى جميع هذه الأنواع من الاستعمار انما هو الاستعمار

---

(١) كتاب بلوروسيا أو أمة تخلق تأليف نقولاس فاكار ·
The Making of a Nation by Nicholas Vakar.

الاقتصادى أو استعمار الاستغلال والتسخير سافرا أو متنقبا بنقاب مونهل لا يخفى من ورائه سرا عن ذى بصر مفتوح .

وفى وسع كل دولة مستعمرة أن تغالط فى حقيقة نياتها الا الدولة التى تدين بالمادية الاقتصادية وتؤمن بأن الثروة الاقتصادية هى الزمام الذى يقبض به الحاكم على قياد المحكومين . فمن اللغو أن يزعم المستعمرون الروس أنهم يبسطون نفوذهم على تلك الارجاء ثم يتركون زمامها فى أيد غير أيديهم ويجعلون شئون الثروة الصناعية على التخصيص بمعزل عن مشيئتهم مستقلة عن برامجهم وتوجيهاتهم ، فليس لرغبة الروس فى استبقاء تلك الارجاء تحت نفوذهم من معنى مفهوم غير أنهم يستولون على زمام الاقتصاد هناك ويحولون بين أبناء البلاد والقدرة على مخالفتهم فى شئون السياسة العالمية وشئون السياسة الداخلية على السواء .

وخطة روسيا فى علاقتها بهذه الامم الخاضعة لها لا تختلف ذرة من خطط المستعمرين حيثما تركزت السياسة كلها فى التضحية بمصالح المغلوبين خدمة لمصالح الغالبين ، وكلما كانت هناك مصلحة مقدمة على غيرها فهى مصلحة الدولة السائدة لا مصلحة الاتباع المسخرين .

وخذ لذلك مثلا خطة الدولة الروسية فى مسألة التأميم وهى من أمهات المسائل فى البلاد الشيوعية بل هى أم المسائل جمعاء . بغير استثناء ... فبولونية وشيكوسلفاكيا ويوغسلافيا شأنها كشأن رومانيا والمجر وبلغاريا وفنلاندة تسمى فى العرف الشائع بالتوابع أو الكواكب التى تدور فى فلك روسيا السوفييتية Satellites ... الا أن بولونية وشكوسلفاكيا ويوغسلافيا كانت فى الحرب الى جانب الروس فلم يكن فى مقدورهم أن يدعوا عليها حقا من حقوق التعويض والغرامة كما أدعوا على رومانيا والمجر وبلغاريا وفنلاندة التى كانت الى جانب النازيين . ولهذا عجلوا بسياسة التأميم فى البلاد التى لا مطمع لهم فى اغتصاب مصانعها ونقلها من بلادها ، وأخروا تنفيذ هذه السياسة فى البلاد الأخرى ريثما يفرغون من « عملية » التجريد والاغتصاب باسم الغرامة والتعويض ، فنقلوا ما نقلوا من مصانعها وآلاتها وتركوها مقفرة من موارد الثروة الصناعية الى أن تنتظم هذه الموارد باشرافهم ومشاركتهم كرة أخرى ، وهم هنا يعاقبون الشعوب بذنب السادة المسخرين لها فى الحرب على غير ارادتها ، وتصغى اليهم فلا تسمع منهم دعاية يلغطون بها غير دعاية الغيرة على الشعوب وتبرئتها مما يجنيه السادة باسمها من الجرائم والذنوب (١) .

---

(١) كتاب توابع ستالين فى أوربه ، تأليف ايجايل جلكشتين .
Stalin Satellites Europe by Ygael Gluckstein.

ولا يفهم من هذا أن البلاد التى تعجل فيها التأميم كانت أسعد حظا من البلاد التى تأخر فيها التأميم الى ما بعد استنزافها بالتعويضات والغرامات • فانهم فى الواقع أمموا مرافقها العامة وأحالوها شيئا فشيئا الى نظام الادارة الفردية الذى عمموه فى ظل الشيوعية وأرادوا به أن يكون تدبير الصناعة بأيدى أفراد معدودين يتلقون الأوامر من سادة الكرملين ولا يملكون المراجعة فيها • وقد بدأت هذه السياسة فى روسيا منذ أكثر من عشرين سنة وسرت الى البلاد الخاضعة لها بعد الحرب العالمية الثانية ، وقالت صحيفة الحزب الشيوعى « برفدا » فى عددها الصادر فى السابع من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٩ أن لجنة الحزب المركزية اذاعت على العمال منشورا دعتهم فيه الى اجتناب التدخل المباشر فى الادارة الفردية وأن يساعدوا هذه الادارة على سرعة العمل وتحسين الانتاج •• وأكثر ما بقى من المرافق غير مؤمم فالمرجع فيه الى الشركات المتساوية أى الشركات التى يتساوى عدد أعضائها من الروس وأبناء البلاد الاصلاء ، وقد أخذت هذه الشركات تقل وتزداد بعدها حركة التأميم على أثر اشتداد الأزمة الاقتصادية فى أوربة الوسطى وصدور القرار بالاجماع من حكومة شيكوسلفاكيا بقبول تبادل التجارة مع أوربة الغربية ، وما صدر هذا القرار فى الرابع من شهر يولية سنة ١٩٤٧ حتى بادر الكرملين باستدعاء جوتوالد ومازاريك من رجال الحكومة التشيكية وأجبروهما على الغاء القرار فى العاشر من الشهر نفسه ، وكان ذلك مقدمة للتعجيل بحركة التأميم فى أوربة الوسطى وأوربة الشرقية لأنه هو الذريعة الوحيدة الى تغليب رأى السلطة على رأى الخبرة والمشورة فى برامج التصنيع •

وحدث ما لا بد أن يحدث من سوء الحال فى البلاد التى ذهبت مصالحها هدرا في سبيل مصالح المستعمرين أو فى سبيل مآرب الحاكمين الذين يخضعون روسيا وماحولها لمشيئتهم العاتية بغير مراجعة ولا رحمة •• وحدث ما لابد أن يحدث من جراء سوء الحال وتعطل الأعمال والعمال ، فاستعد ولاة الأمر لهذه المشكلة بعدتهم التى لا عدة لهم غيرها : وهى القمع من جهة ، واتهام المتذمرين الثائرين بالرجعية والحنين الى عهود الارستقراطية وحكومات النبلاء والامراء المستبدين ! •• وان كان القائمون بالثورة من عمال المناجم والمصانع ومن الشبان الذين نبتوا فى ابان الثورة الاجتماعية بين السادسة عشرة والخامسة والعشرين ! •

ولقد كان التهويل باسم الرجعية والارستقراطية من اللوازم التى لا غنى عنها لذلك الاتهام الحاضر الذى يردون به على كل ثورة وكل حركة من حركات التذمر والاحتجاج على سيئات الادارة الصناعية أو الزراعية • ومن يسمع بهذا التهويل يخيل اليه أن حركات الاصلاح الصناعى أو الزراعى لم

تكن شيئا معهودا قبل دخول أوروبة الشرقية وأوروبة الغربية فى حوزة الكرملين أو حوزة الاستعمار الأحمر بمختلف أسمائه ودعاواه · الاأن الواقع أن الاصلاح الزراعى قد بدأ فى أوروبة الشرقية بصفة خاصة قبل ابتدائه فى صميم البلاد الروسية · اذ لا يخفى أن بلاد الصرب والبلغار ورومانيا وسائر بلاد البلقان كانت تابعة لدولة آل عثمان فى الآستانة ، وكان أصحاب الاقطاع فيها من ولاة الترك ورؤسائهم الذين اقتطعوا الأرض الواسعة فى تلك البلاد وملكوها مقيمين فيها أو موكلين عنهم من يزرعها لحسابهم من مستأجريها ، فلما استقلت بلاد البلقان وما جاورها عن الدولة العثمانية كان هذا الاستقلال بداءة الثورة على الاقطاع وتوزيع أرض الملاك الاقطاعيين على الفلاحين · وقد تبين من دراسات المختصين لحالة الملكية الزراعية فى شرق أوربة أن زوال عهد الاقطاع فيها قد تلاه فجأة توزيع الأرض على صغار الملاك · ثم تتابعت بعده القوانين التى تنص على تحديد الملكية الزراعية الى ما قبل الحرب العالمية الثانية ، فصدرت حكومة ستامبولسكى فى بلغاريا (١٩٢٠ ـ ١٩٢٣) قوانين تمنع زيادة الملكية الزراعية على ثلاثين هكتارا أى نحو سبعين فدانا ، وتبين من الاحصاء الرسمى فى يوغسلافيا أن نسبة المالكين الذين كانت لهم أرض تزيد على خمسين هكتارا أقل من عشر عدد الملاك · ثم صدر قانون أغسطس سنة ١٩٥٤ بتحريم زيادة الملكية الفردية على خمسة وأربعين هكتارا · ويؤخذ من الاحصاءات التى صدرت باشراف عصبة الأمم أن بلاد البلقان جميعا كانت على هذا المثال فى تشريعات الملكية الزراعية (١) وتشبهها فى هذا التطور بلاد أوربة الوسطى التى كان ملاكها الكبار من الألمان والروس ، ثم صودرت أملاكهم بعد الحرب العالمية الأولى ··· فان الثورة على الاقطاع فيها ليست بالحديثة ولا هى من مبتكرات الدولة الشيوعية ، ولا يختلف الأمر كثيرا فى أطوار الملكية الصناعية ، فان معظم الصناعات قد نشأ فى تلك البلاد باشراف الحكومات لقلة عدد المشتغلين بالصناعة الضخمة من أصحاب الأموال الأفراد ولصعوبة قيام الشركات الكبرى فى بلاد عاشت على الزراعة منذ زمن بعيد ، فلما قامت فيها الصناعة باشراف الحكومات لم يكن أيسر من تحويلها الى ملكية الأمة ومنع التضخم فى الثروات الفردية ·

فالتهويل باسم الرجعية والاقطاع فى أوربة الوسطى وأوربة الشرقية انما هو بضاعة مزجاة من بضائع الدعاية التى لا تعرف لها جوابا ترد به على حركات التذمر والشكوى غير ذلك الغول الميت أو الغول المحتضر الذى دخل فى دور النزع قبل قيام الثورة الشيوعية · ومهما يكن من خطره فما

---

(١) يراجع كتاب ويلبرت مور عن الاقتصاد والسكان فى أوربة الشرقية ·
Economic Demography of Eastern and Southern Europe by Wilbert Moore.

هو بالحجة الصالحة لتفسير كل شكوى واحتكار كل علة ، والبراءة من كل تهمة يرمى بها نظام كله عرضة للسخط والاتهام ٠

★★★

ان مؤلف الرسالة التى نقدم لها بهذه الكلمة قد تولى شرح الموقف فى أوربة الشرقية من وجهـة الاسـتعمار الاقتصـادى دون غيره من ضروب الاستعمار المسلط على الامبراطورية السوفيتية من أقصاها فى المغرب الى أقصاها فى المشرق ، ولكن الناحية التى قصر عليها المؤلف دراسته نموذج صادق لجملة النواحى كما تبدو فى الجانب الاوربى على الأقل ، وهى مثل يقاس عليه فيما يجرى وراء أوربة بين الأمم الآسيوية التى لا فرق بين الطمع فى ابتلاعها من الناحية الاقتصـادية أو الطمع فى ابتلاعها من الناحيـة القومية ، لأن ضمها وضم صناعتها يبتدئان معا فى آونة واحدة ، ولا ينفصل هذا الطمع عن ذلك فى نفوس الطامعين ٠

فمن الطبيعى أن يدور البحث على الاسـتعمار الاقتصـادى وأنماطه المتفرعة عليه فى رسالة تتحدث عن أوربة الشرقية ولا تجاوزها الى ماوراءها من أقطار الامبراطورية الحمراء ٠ لأن المستعمرين الحمر قد وجدوا فى بيئات أوربة الشرقية صناعة حكومية أو شبيهة بالحكومية يستولون عليها فيتاح لهم أن يستولوا على زمام السلطة فى بلادها ٠ ولكن هؤلاء المستعمرين الحمر لم يقنعوا بالاستعمار الاقتصادى فى أمبراطوريتهم الآسيوية لأنهم قد بدأوا هناك من الالف والباء فاتجهت مقـاصدهم من البداءة الى سـياسة من سياسات الضم والاستلحاق لا تقنع فى النهاية بما دون الادماج التام أو بما دون افناء القوميات الآسيوية من فرعها الى قدمها فى غمار القومية الروسية المتغلغلة فى أحشائها ٠

ولولا الحاجة الى الأيدى العاملة وصعوبة القضاء على ملايين من الخلق ذوى بأس وحمية لا تجهت مقاصد القوم الى الابادة والاستئصال ولم يقنعوا هنالك بالضم والاستلحاق ٠ فلما نظروا أمامهم الى ولايات متفرقة تتراوح عدة الولاية منها ما بين المليون والملايين العشرة أو الاثنى عشرة زادوها تفرقا وتمزيقا لتيسير التهامها واهتضامها وعمدوا الى ملامحهـا البارزة التى تعصمها أن تنمحى فى غمار الغاصبين فقرروا محوها وتعفية آثارها ، وبخاصة ما كان منها متصلا بالعقيدة واللغة ٠ وكلتاهما فى شعوب آسيا الوسطى والغربية قوة لا يستهان بهـا ، لولا ثقة المستعمرين بطغيـان الكثرة الساحقة على القلة المبعثرة بغير حام يذود عنها ولا نصير يسـتمع اليهـا ٠

ولا يعرف التاريخ الآسيوى ـ بلا استثناء جنكيزخان وتيمورلنك ـ طغيانا بلغ من الوحشية والشناعة ما بلغه طغيان الاستعمار الأحمر على هذه الأمم الصغيرة التى لا ذنب لها الا أنها تخالف المسيطرين عليهافى عقيدتها ولغتها . فقد أمعنوا فيها قتلا وتشريدا وانتهاكا للحرمات المقدسة على دينهم فى الوحشية التى يزيدها هنا ضراوة وعنفا أنها منصبة على أناس يعادونهم فى عقيدتهم وعصبيتهم كما يعادونهم بسياستهم ومطامعهم فكان تلويث الحرمات المقدسة فى تلك البلاد الاسلامية شهوة من شهوات العداء والنقمة وخطة من خطط الفتح والاستعمار ، وكان احراق المصاحف وكتب الاحاديث بعض المراسم المقررة فى تلك المذابح الجهنمية اشباعا لنقمة التعصب الاعمى وتحقيقا لمآرب السطو والاستغلال فى آن .

ويسيرٌ جدا على القوم أن ينكروا هذه الفظائع التى اقترفوها داخل حدودها المغلقة واستطاعوا أن يعزلوا بينها وبين العالم بحواجز الاستبداد فوق ما أحاط بها من حواجز الأرضين والبحار . ولكن للذى لا يتيسر لهم أن ينكروه هذه الرقائع التى تتسرب وراء حواجز الاستبداد ووراء حواجز الجبال والرمال ، وهذه الوقائع التى تثبتها عليهم أقوال صحفهم ووثائقهم المنشورة بأيديهم ، والى هذه الوقائع نحيل من شاء ليعرف منها قليلا مشهورا ينم على كثير مستور .

كان حجاج آسيا الوسطى يفدون الى الأماكن المقدسة كل عام بعشرات الألوف لا ينقطعون عن الحج حتى فى ابان طغيان الدولة القيصرية . وكانوا يعرفون بين المسلمين باسم حجاج بخارى أو الحجاج البخاريين . اذ كان اسم البخارى وحده كفيلا بالحرص على ارتياد أرض الرسول لأنه الاسم المقرون بالأحاديث النبوية على ألسنة جميع المسلمين ... فاذا بهؤلاء الحجاج الحريصين على فريضتهم يغيبون عن الموسم بعد الثورة الشيوعية ويدوم انقطاعهم زهاء ثلاثين سنة ، ثم يؤذن لفئة منهم بالظهور فلا يزيد عدد الحجاج منهم فى السنة على ثلاثين أو أربعين وقلما يبلغون المائة فضلا عن الألف والآلاف . وليس من المعقول أنهم كفروا بدينهم بين عام وعام ، ولكن المعقول أنهم يلاقون الهول الذى لا قبل لهم به دون فريضتهم العزيزة عليهم . ومن يصنع ذلك صدا عن فريضة يتسامع الناس أخبارها ، ولا تخفى دلائل منعها ـ خليق أن يصنع أضعاف ذلك صدا عن الشعائر التى لا يسمع لها صوت بعيدا عن عقر دارها .

★★★

أما العمل على محو معالم القومية فى هذه الشعوب وقطع كل علاقة حية بينها وبين تراث اللغة والتاريخ فيها ـ فهو زبدة المبادىء التى تعلنها

قرارات الحزب وتذيعها الصحف الرسمية ويشرحها في الكتب والمنشورات علماؤها المجندون لتنفيذ برامجها الثقافية ، وما من كتاب يؤذن له بالخروج من المطبعة في أرجاء روسيا الا وهو بمثابة الأمر الحكومي المفروغ من تحضيره ومراجعته وتطبيقه على مشروعات السنين كما تقررها نظم الدولة بعد أن تفرض العقوبة الصارمة على من يخالفها ٠

ولقد سلك المستعمرون الحمر مسلك جميع المستعمرين في تخدير ضحاياهم بالوعود الكاذبة وتغريرهم بزخارف الأباطيل ومحرجات الايمان على نية الحنث بها من اللحظة الأولى ٠ فأعلنوا في أوائل أيام الانقلاب الشيوعي بلاغا طنانا وجهوا فيه الخطاب الى الشعوب الأسيوية الاسلامية بصفة خاصة وأكدوا فيه لكل شعب منها أنه آمن بعد اليوم على حريته التامة في معتقداته وشعائره وعاداته ومقومات العرف واللغة بين عشيرته وأهله ، وآذنوه بزوال الحكم القيصري وزوال عهد الحجر والطغيان بزواله الى غير رجعة ، وما هو الا أن هدأت الثائرة واستقرت الدولة الجديدة في مراكزها حتى عادت القيصرية في أشنع صورها وحل الخوف محل الأمان في كل وعد من وعود الحرية والطأنينة ، وقال قائل من أمناء تلك الشعوب المهاجرين في حديث يمتزج بالسخر الأليم ان المخدوعين المساكين كانوا اذا أرادوا أن يعرفوا مواضع المصادرة المنتظرة رجعوا الى بقية الشعائر التي وعدوهم باحترامها فعلموا أنها هي الهدف المقصود بالضربة التالية ٠٠٠ ولم يكن هذا القائل الساخر مازحا فيما وصفه من تقدير قومه وان ساقه في مساق التهكم والسخرية ٠ فان الشعائر المقدسة قد أصبحت في الواقع مرادفه للجرائم المحرمة على تلك الشعوب ٠٠٠ حتى الشكوى من القيصرية في ابان طغيانها أصبحت دليلا على التشبث بالنعرة القومية ، فوجب اتهام المجاهرين بها والقضاء على دعاتها ٠

وتساوى في هذا الاضطهاد جميع الشعوب الاسلامية من كان منهم في أقاليم أوربة ومن كان منهم في أقاليم آسيا الغربية أو آسيا الوسطى ٠ فصدر الأمر في القرم بتقسيم اللغة التي يتكلمها القرميون الى ثلاث لهجات وضبط كتابتها على حسب الأبجدية الروسية لا على حسب الأبجدية العربية ، ونادى وزير المعارف ـ الكسندرروفتش ـ في المؤتمر الشيوعي السابع عشر بوجوب تطهير هذه اللهجات وادخال الكلمات الروسية في موضع الكلمات المحذوفة منها ، وشاعت سياسة التشتيت والتمزيق في اللهجات بل في فروع اللهجات لتيسير محوها وتصعيب استخدامها في مقاصد العلم والثقافة وتعجيزها عن الثبات ـ من ثم ـ أمام اللغة الروسية التي أجترفتها جميعا في معاهد الدراسة ودواوين الحكومة ومنشورات المطابع والمجالس السياسية ٠ وقدو كان ستون مليونا من أبناء الشعوب الآسيوية يقرأون صحيفة

« ترجمان » التى كان يصدرها المصلح الكبير اسماعيل غصبرالى المعروف فى القاهرة ، وكانوا على اختلاف لهجاتهم يفهمونها ويتداولونها ، فأمر المستعمرون الحمر ـ أنصار حرية الشعوب ـ بمصادرة كل صحيفة من قبيلها واعتبارها داعية الى النكسة والرجعية والتشبث بالنعرة الوطنية ··· وصادروا مع مصادرتها كل سيرة من سير البطولة يتغنى بها أبناء الشعوب المغلوبة ، لأن ثورة الأبطال الوطنيين فى وجه القياصرة انما كانت ثورة على الأمة الروسية التى ساقت الحضارة والمعرفة الى بلاد تلك الشعوب ·· !

وحاقت اللعنة بالأدباء الذين يذكرون أوطانهم بالثناء ويفخرون بالانتماء اليها ، فاتهم الشاعر التركمانى جمعة مرادوف بالنكسة الرجعية لأنه نظم قصيدة عنوانها « بلدى تركمانستان » عابتها صحيفة الحزب (تركمانسكايا اسكرا) Tunkmerskaya Iskra فى عددها الصادر فى الحادى والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٩٥١ وقالت فى انتقاد الشاعر ، انه لا يختص التركمان السوفيتية بالكلام بل يعمم القول على جميع بلاد التركمان ويصورها كأنها جنة على الأرض ··· وانما ينبغى على الشاعر أن يتحدث عن تركمان السوفيتية لأنها احدى الجمهوريات الأخوات فى داخل الاتحاد السوفيتى العظيم » ·

وسيقت الامم غير الروسية الى عقد مؤتمر تعلن فيه ولاءها للدولة المستعمرة وسخطها على دعاة التجديد والاحياء فى الحركة الوطنية · فخطب باجيروف نائب الرئيس بذلك المؤتمر قائلا : « ان رئاسة اتحاد الكتاب السوفيتيين رات حوالى سنة ١٩٤٨ ·· ان تعقد فى موسكو اجتماعا لتنظيم المناقشة فى مسألة القومية التى ينتمى اليها الكتاب السابقون ومؤلفاتهم غير مستثنية من ذلك أمثال ذلك الكتاب الرجعى الذى ينطوى على عداوة الشعب وتسمم الافكار بسموم الجامعة الاسلامية نعنى كتاب ديدى كزكوت Dede Karkut ··· ولكن هذا الرأى قد تقرر رفضه فى لجنة الحزب المركزية وعرفنا بفضل هذه اللجنة طوايا الكتاب السيئة وأن نميط اللثام عن حقيقته الرجعية ·· »

وتعقب النقاد ـ الرسميون ـ أناشيد البطولة والوطنية فى الامم الخاضعة للدولة المستعمرة فوصموها بخبث النزعة وسوء الطوية وقال باجيروف المتقدم ذكره فى عدد يوليو سنة ١٩٥٠ من مجلة بولشفيك وهو يتحدث عن « شامل » بطل القوقاز الذى اشتهر بثورته على القيصر قبيل منتصف القرن التاسع عشر ، « اننا اذا أردنا أن نفهم فكرة صحيحة عن حركة شامل هذه فلنذكر أنها كانت حركة دنية وأنها أشد أعراض للنزعة الاسلامية نكسة وعداوة » ··

وقالت مجلة « كومونست » فى عدد ينـــاير سنة ١٩٥٣ « أن المؤلف جعروف الذى كان يظن سنة ١٩٤٤ أن الحركات القومية التى ثارت على روسيا خلال سنة ١٨٩٨ وسنة ١٩١٦ كانت من حركات التحرير الـــوطنى قد عاد فأدرك خطأه وكتب فى سنة ١٩٥٢ انها كانت حركات اقطـــاعية متعصبة » ٠٠ ومضت المجلة تقـــول ، « ان هـــــذا الكتاب ـ أى كتاب جعروف ـ يتعمق فى البحث عن جذور العلاقة الودية بين أمم آسيا الوسطى وبين الأمة الروســـية العظيمة ويلفت النظر على نحو خاص الى الدلالة التقدمية التى يدل عليها ضم هذه الامم الى الحظيرة الروسية ٠٠٠ فان هذا الضم قد أتاح لها فرصة المساهمة فى ثقافة روسيا العظيمة ٠٠ »

وصحيفة الدولة « برافدا » تردد هذه الاقوال وتصرح فى الســـابع من اكتوبر سبة ١٩٥٢ أن اللجنة المركزية للحزب الشيوعى تمنع ســـوم الجامعة الاسلامية ٠٠٠ ثم تصرح فى الثالث عشر من فبراير ســـنة ١٩٥٣ بأن المؤرخ سليمانوف مضلل كاذب لانه يزعم أن الشعوب التركية تجمعها ثقافة مشتركة ، وتصرح صحيفة الدولة الأخرى « ازفستيا قبل ذلك (فى الثانى من سبتمبر ١٩٥١) ببطلان الدعوة التى يجنح اليها مجمع العلوم ببلاد الازبك لاحياء كتب السلف الاسلامية وادخار مخطوطاتها ومتفرقاتها :

وقد بدأت هذه السياسة منذ الأيام الأولى التى أفاق فيهـــا ســـادة الكرملين من شواغل حربهم الداخلية ٠ ولكنهم كانوا يراوغون فى تنفيذها بين المصانعة والخديعة أو بين القمع والحيلة ، حتى كشفوا القنـــاع عنها حوالى سنة ١٩٣٠ فدفعوا اذنابهم الى المؤتمر الذى سموه بالمؤتمر التاريخى فى ســـمر قند ليعلنوا البراءة من الوحدة القومية ٠٠ أو ليعلنوا بعبارة أخرى أنهم ـأبناء آسيا الوسطىـ اشتات متفرقون وليسوا بالعنصر الواحد فى الأصل ولا فى اللغة ولا فى التراث القديم ، وقد اجتمع المؤتمر ســـنة ١٩٣٥ وأصدر قراره ـ العلمى ـ بوجوب تصحيح النظر الى تلك الوحدة المزعومة بين القازاق والتركمان والجرغيز والأزابكة وجيرانهم الآخرين ٠٠ ولسنا ندرى كيف يطمع دعاة الاستعمار الأحمر فى تصديق هذه الاضحركة عن اناس طائعين مختارين يشدون رحالهم الى بلد واحد ليسوغوا للغاصب تمزيقهم وانكار أصولهم وابتلاعهم بعد ذلك اشتاتا مبعثرين ٠

ويجوز تصديق هذه الأضحوكة لو كانت المســـألة هنا مسألة مبدأ فى المذهب الماركسى يطبقونه فى جميع الاوطان وبين جميع الشـــعوب ٠٠٠ أو لو كان الشعور الوطنى على مذهبهم شعورا بغيضا لديهم يحرمونه على الأمم الحـــاكمة كما يحرمونه على الأمم المحـــكومة ، ولكن الواقع

فى الامبراطورية الروسية على نقيض ذلك من طرفيه • فان العصبية الوطنية مفروضة مشكورة فى روسيا حيث تكون مذمومة مدحورة فى البلاد الخاضعة لسلطانها ، وكلما اشتد ولاة الأمر فى تحريم العناية باللغة والتراث القومى فى قطر من الأقطار الآسيوية قابلوا ذلك بالحماسة الروسية للعنصر واللغة والثقافة فى أضيق حدودها ، ولم يصنع النازيون والفاشيون فى تهوسهم المرذول بالمفاخر المحتكرة للجنس الآرى والمآثر الموقوفة على الجرمان وأسلافهم دون سواهم من أمم العالمين بعض ما صنعه دعاة العظمة السلافية — بل عظمة الجنس الروسى على حدة — بين سائر أجناس السلاف الحاضرين والغابرين • فانهم ردوا الى هذا الجنس فضلا واحدا لا منازع لهم فيه يدعون به السبق الى كل اختراع والانفراد بكل فكرة قبل انتشارها بين بلاد الحضارة الحديثة •

ففى سنة ١٩٤٩ منح مجلس الوزراء جائزة الدولة للمؤرخ ريباكوف Rybekov لأنه زعم فى كتابه عن صناعات روسيا القديمة أن روسيا كانت مصدر المعارف الصناعية التى انتقلت منها الى الغرب واستفادت منها بولونية وبوهيمية وما جاورها •••

وصحيفة الدولة تحيى قصة كاترين الثانية فى الصور المتحركة فتعيد قصيدة شاعرها الذى وصف ذلك العهد بأنه عهد الظفر القاصف والغلبة الجائحة للعبقرية الروسية فى ميادين القتال •

وقادة روسيا الذين خدموا القياصرة تعاد ذكراهم المئوية أو الخمسينية لكل مناسبة عارضة أو غير مناسبة على الاطلاق غير أرقام التواريخ فيشيد كاتبهم شاتاجين Shatagin فى شهر مايو سنة ١٩٥٠ بذكرى انقضاء مائة وخمسين سنة على وفاة القائد سفيروف Suvorou ويحيى هذه الذكرى الخالدة بمقال مسهب استغرق أكثر من عشر صفحات فى العدد التاسع من مجلة البولشفيك •

والدولة هى التى تتولى نشر كتاب كوفاليف Kovalev الذى يعيد معظم المخترعات الى سابقة روسية ، ويقول فيه أن لومنسوف الروسى سبق لافوازيه الى قانون بقاء المادة والطاقة ، وأن بتروف سبق جميع العلماء العالميين فى كشوف الصناعة الكهربية وأن لينز وياكوبى سبقا المخترعين والكاشفين الى استطلاع أسرار المغنطيسية الكهربائية ، وأن بلزنوف سبق واطس الى اختراع القاطرات البخارية ، وأن يابلخوف ولوديجين سبقا المخترعين الى الأهتداء لنور الكهرباء بأكثر من ثلاثين سنة ، وأن بوبوف هو مخترع جهاز الاذاعة حوالى سنة ١٨٩٥ ، وأن بريديجين سبق الفلكيين الى رصد حركات المذنبات ، وأن لوباشفسكى هو صاحب الآراء الحديثة التى جدد بها علوم الرياضة وأنشأ بها هندسة تنافس هندسه أقليدس القديمة ••

وأن علماء الروس بالايجاز قد سبقوا جميع العلماء والمخترعين فى ميادين الصناعة العصرية والعلم الحديث ·· »

وكلما اجتمع مؤتمر المعلمين الذى يوحى بسياسة التعليم الى المدارس كافة فى أنحاء الامبراطورية ـ نادى بوجوب تعليم الدروس جميعا باللغة الروسية ··· وصحيفتهم المخصصة لاذاعة هذه السياسة هى التى نشرت خلاصة هذه القرارات فى السابع من شهر ابريل سنة ١٩٥٤ فقالت فى الفصل الافتتاحى « ان الاكرانيين وأمناء روسيا البيضاء واللاتفيين والاستونيين وقازاق والازابكة والشراكسة والأرمن والتتر الخ الخ يدرسون بحب وشغف لغة اختهم الكبرى الأمة الروسية العظمية »

وهذه الصحيفة هى التى نشرت فى الثلاثين من شهر يونيو سنة ١٩٤٣ برنامج التعليم فقالت : « انه من اللازم فى السنوات الباكرة أن يتعلم الاطفال محبة كل ما هو وطنى من تربة الوطن ·· وأن نغرس فى نفوسهم الفكرة التى تجلب دموع الفرح الى أعينهم عند الاشارة الى هذه الأم الكبرى ونسرى بالقشعريرة الى الدم كلما مر بالذهن خاطر يهددنا بفقدها » ·

ولنذكر أن هذه الفترة بين سنة ١٩٤٣ وسنة ١٩٥٤ تتناول سياسة العهدين فى حكومة الدولة الروسية ، عهد ستالين فى أوجه وعهد خلفائه الذين نقضوا من سياسته ما نقضوا غير هذه النزعة الامبراطورية التى تعالج برامج الاستعمار علاجا يمكن الحاكم المتسلط على الامبراطورية من اخضاعها لقبضة واحدة فى عاصمة واحدة : هى عاصمة الدولة الحاكمة ·

★★★

فهذه السياسة التى تحرم الحماسة الوطنية فى مكان وتقدسها فى مكان آخر ليست من مبادىء المذهب ولا من أصول المادية الماركسية ، وانما هى لون من ألوان الاستعمار الكثيرة يدين بها المتسلطون الشيوعيون ، ويتبعون فيها على هذه الصورة الخبيثة شر ضروب الاستعمار فى أشأم عصوره ، لأنها استعمار يقود الى الفناء ويلغى وجود الأمم المنكوبة به كى لا تقوم لها قائمة بعد جيل أو جيلين ، واذا اقترنت به مذابح الابادة التى تقضى على كل رأس يرتفع بالمعارضة أو المناقشة باسم القضاء على الطبقات العليا والوسطى فقد خرج الأمر من كونه استعمارا يساس به الآدميون الى حالة من الحيوانية لا فرق بينها وبين القطعان السائمة من العجماوات ·

★★★

ولا أدل على الجهل بالشيوعية فى نطاقها الواسع الخفى من أن ترى بعض الناس يذكرون شرها ويحسبونه شرا جديدا بمعزل عن شرور الاستعمار قديمه وحديثه ، وتراهم يقرنونها بالاستعمار على الدوام كأنهما شيئان متقابلان لا يتلاقيان فى غرض ولا يتفقان فى وجهة مشتركة • وظاهر لا حاجة به الى الاظهار أن الشيوعية دعوة من الدعوات الاجتماعية تحتوى أمورا كثيرة ليست فى الاستعمار بجميع أنواعه ، ولكن الأمر الذى لم يظهر كل الظهور أن الاستعمار لم يوجد فيه عيب قط خلت منه الشيوعية بنظامها القائم فى العصر الحاضر ، وان الامبراطورية الشيوعية تباشر اليوم الوانا من الاستعمار السافر والمستتر كأشنع ما عرف الناس فى عهودهم الغابرة والحاضرة ، سواء منها استعمار التوطن واستعمار التسلط واستعمار الابتزاز والاستغلال واستعمار الضم والافناء •

وهذه الرسالة قد عنيت باستعمار واحد فى رقعة واحدة من الأرض ـ وهو الاستعمار الاقتصادى فى الأقاليم الأوربية الشرقية ـ فأجملت الكلام عليه اجمالا كافيا للالمام بخطوطه العريضة كما تقول فى مصطلحاتنا العصرية ، ولكن الاستعمار الشيوعى ـ حتى فى هذا النطاق المحدود أخفى وأوخم من أن يتم الالمام به فى ناحية واحدة دون الالمام العاجل بنواحيه الأخرى ، ولعلنا بهذه المقدمة الموجزة فى موضوعها قد أحطنا الصورة باطارها الذى يليح لنا ظلالها وملامحها من مختلف زواياها •

مستقبل روسيا

من الوثائق التاريخية النادرة فى اللغة العربية ، رسالة منسوبة الى الفيلسوف أرسطو ، يقال أنها كانت جوابا منه على سؤال وجهه اليه تلميذه الاسكندر المقدونى ، مستشيرا اياه فى قتل امراء فارس بعد فتحها ، وفى احلال غيرهم من قادة اليونان محلهم في ادارة شئون المملكة الفارسية ٠ فأجابه الفيلسوف بتلك الرسالة ، محذرا أياه من مغبة هذا العمل ، وناصحا له بالابقاء على أمراء البلاد وسياستهم على النحو الذى أملاه ، وهو كما يلى من النص العربى البليغ :

قال الفيلسوف : (٠٠ انك ان تقتل أشرافهم ، تخلف الوضعاء على أعقابهم ، وتورث سفلتهم منازل عليتهم ، وتغلب أدنياءهم على مراتب ذوى أخطارهم ٠ ولم يبتل الملوك قط ببلاء هو أعظم عليهم وأشد توهينا لسلطانهم من غلبة السفلة وذل الوجوه ٠ فاحذر الحذر كله ، أن تمكن تلك الطبقة من الغلبة والحركة ٠ فانهم ان نجم منهم بعد اليوم على جندك وأهل بلادك ناجم ، دهمهم منه ما لا روية فيه ولا بقية معه ٠ فانصرف عن هذا الرأى الى غيره ، واعمد الى من قبلك من أولئك العظماء والأحرار ، ووزع بينهم مملكتهم ، وألزم اسم الملك كل من وليته منهم ، واعقد التاج على رأسه وان صغر ملكه، فان المتسمى بالملك لازم لاسمه ، والمعقود التاج على رأسه لا يخضع لغيره ٠ فليس ينشب ذلك ان يوقع كل ملك منهم بينه وبين صاحبه تدابرا وتقاطعا وتغالبا على الملك ، وتفاخرا بالمال والجند ، حتى ينسوا بذلك اضغانهم عليك وأوتارهم فيك ، وتعود حربهم لك حربا بينهم ، وحنقهم عليك حنقا منهم على أنفسهم ، ثم لا يزدادون فى ذلك بصيرة الا أحدثوا لك بها استقامة ، ان دنوت منهم دنوا لك ، وان نأيت عنهم تعززوا حتى يثب من ملك منهم على جاره باسمك ، ويسترهبه بجندك ٠ وفى ذلك شاغل لهم عنك ، وأمان لأحداثهم بعدك ، وان كان لا أمان للدهر ولا ثقة بالايام ٠ وقد أديت الى الملك ما رأيته لى حظا وعلى حقا من اجابتى اياه والى ما سألنى عنه ومحضته النصيحة فيه ٠٠)

★★★

مقدمة لكتاب « مستقبل روسيا » الكتاب الرابع من سلسلة كتب الناقوس — منشورات مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة سنة ١٩٥٧ ، والكتاب تأليف ليونارد٠ث٠ بيرو ، ترجمة الأستاذ على أدهم ٠

هذه الوثيقة النفيسة تنسب الى أرسطو ، كما نسبت اليه آثار كثيرة على غير ثقة بصحة هذه النسبة ، أو على غير ثقة بصدور هذه الآثار جميعا من قلم أرسطو ، الا ان يكون ذلك منقولا عن لسانه بأقلام تلاميذه ومريديه . ومهما يكن من صحة نسبة الرسالة الى قلمه أو لسانه ، فالأمر الذى لا شك فيه أنها رسالة جديرة بفكر عظيم من طبقة ذلك الفيلسوف القليل النظير فى عالم البحث والتفكير . ومما لا شك فيه كذلك أن الرسالة قد اشتملت على خطة واقعية جرت عليها دول الفتوح والإستعمار من قديم العصور ، وفى مقدمتها دولة الرومان الغربية . التى استفادت فى نظم السياسة والادارة الحكومية من تجارب الفاتحين قبل عصرها الذهبى بعدة عصور ، فقد كان الرومان فى عصرهم الذهبى حريصين على اتباع تلك الخطوة ، يجنحون ما استطاعوا الى استبقاء ذوى الرئاسة والزعامة فى البلاد التى يفتحونها على عروشهم تابعين لهم فى المسائل الجليلة ، مستقلين عنهم فى شئونهم الداخلية . وكثيرا ما كانوا يستغنون عن حكم البلاد حكما مباشرا باملاء نظم الحكم وقوانين التشريع على الشعوب الخاضعة لسلطانهم ، فكانت طاعة القوانين الرومانية بمثابة طاعة الدولة الرومانية فى كثير من الأحوال.

ولم تزل هذه الخطة مرعية ، على عمد أو على غير عمد ، الى العصور المتأخرة من عهود الاستعمار الحديث ... فسواء اطلع ساسة الدولة البريطانية على رأى أرسطو ، أو اطلعوا على سياسة الاسكندر فى المملكة الفارسية بعد فتحها ، فالأمر الواضح أنهم سلكوا تلك الخطة على غاية من الدقة فى حكمهم للاقاليم الهندية ، وغيرها من الاقاليم التى فتحوها أو تغلبوا عليها . فقد تركوا للراجات الهنود عروشهم ومراسم اماراتهم ، وفرقوا بين أقدارهم ومظاهر تحيتهم ، حتى حدث بينهم ما قال الفيلسوف أرسطو - ان صحت نسبة الرسالة - انه خليق أن يحدث بينهم فى علاقة بعضهم ببعض ، وفى علاقتهم جمعيا بالاسكندر ودولته المتسلطة . وأتى حين من الدهر كان هؤلاء الراجات فيه أحرص على بقاء السلطان الأجنبى من ذلك السلطان نفسه ، فحاربوا من طلب الاستقلال عن الدولة البريطانية ، وسالموا من سالمها ، وشذ منهم بعض الأمراء لأسباب عارضة ، فاتفقوا مع الثائرين على الدولة البريطانية الى حين ، ولكن هذا الاتفاق لم يبلغ قط مبلغ الاخلاص فى استنهاض الشعب للحرية الصحيحة ، والمشاركة فى توجيه سياسة البلاد .

هذه الخطة تنفع الحاكم المتسلط على الأمم المغلوبة ، وترمى الى استبقاء السلطان فى يده ، بالتفرقة بين أعوانه من أبناء تلك الأمم ، ولم تزل مرعية كما أسلفنا الى عهود الاستعمار الحديث . ولكنها قد انقلبت من النقيض الى النقيض على أيدى أناس آخرين من مستعمرى هذا العهد الأخير ، وهم حكام روسيا فى عهد الشيوعية .

هؤلاء الحكام مستعمرون أو متغلبون ومسلطون على رعاياهم ، سواء حكموا شعوبا من بنى جلدتهم ، أو حكموا شعوبا غريبة عنهم لا تمت اليهم بوشيجة من وشائج الجنس أو اللغة ٠ وخطتهم فى اخضاع رعاياهم تناقض خطط المستعمرين من قبلهم وتقلبها رأسا على عقب ، ولكن فى الواسطة دون النتيجة ٠ اذ كانت النتيجة واحدة ، وهى القضاء على قوة المقاومة بين الرعايا المحكومين واستبقاء السلطان كله بين أيدى المتغلبين المتسلطين ، على الرغم من أولئك الرعايا ٠ فاذا كانت خطة الاسكندر قائمة على حفظ السلطان فى يده ، بالابقاء على الامراء والزعماء بين الشعوب المغلوبة ـ فهؤلاء المستعمرون المحدثون يعكسون هذه الخطة ، ويحفظون السلطان فى أيديهم ، بافناء كل صالح للحكم ، سواء فى ظل الدولة الأجنبية أو فى ظل الدولة الوطنية ، ورجاؤهم كله فى اخضاع الشعوب أن يحرموها القدرة على حكم نفسها ، بحرمانها من كل صالح للحكم ، مستقلا أو مسلوب الاستقلال تابعا لسيده الأجنبى الذى أقامه على عرشه وأوقع بينه وبين وزرائه ٠

خطة قديمة ترمى الى ابقاء العلية والرؤساء ، تبعتها خطة حديثة ترمى الى افناء هؤلاء العلية والرؤساء ٠ وكلتا الخطتين مرسومة لغاية واحدة : هى حرمان السواد الأعظم من قدرة المقاومة ومن الخروج على السلطان الأكبر المسيطر على الجميع ٠

ان هؤلاء المستعمرين المحدثين لا يقولون بالبداهة انهم يرسمون تلك الخطة لتحقيق الغاية ، ولعلهم لا يدركونها ادراكا ينبعث من مذهبهم كيف يفسرون عملهم هذا ، وبماذا يعللون خطتهم التى لا تسمح ببقاء رأس واحد يناصى رؤوسهم ويزاحمهم على مراكزهم ٠ ولكننا ندع ما يقوله اللسان وما يتعلل به المتعلل وننظر الى النتيجة الحاصلة المحققة التى لا مراء فيها ٠ فماذا تراهم كانوا يفعلون لو أنهم قصدوا فعلا بعد الروية والامعان فى التفكير أن يخضعوا الرعية ويجردوها من القوة التى تعارضهم أو تناقشهم الحساب ؟ ماذا تراهم يفعلون لو أنهم أرادوا عمدا أن يتركوا المحكومين أبد الآبدين ، وان يقتلعوا من بنية الرعية جذور القدرة على الاعتراض والمحاسبة ؟ لقد كان المستعمر قديما يأمن جانب المحكومين لأن القوة التى يحاربونه بها متفرقة متنازعة ٠ وقد أصبح المستعمر الحديث على سنة الشيوعية يأمن جانب المحكومين لأن القوة التى يحاربونه بها معدومة أو معطلة الى زمن بعيد ، ولا ندرى أى الخطتين أسوأ وأشنع ، ولكننا ندرى على اليقين أنهما توأمان متشابهان فى أمر واحد : وهو تمكين الحاكم الأكبر من رقاب المحكومين ٠

★★★

ولا يخفى أن حرب الطبقات عقيدة مذهبية عند أتباع كارل ماركس قبل أن تكون خطة سياسية ٠ لأن مذهب كارل ماركس كله قائم على تنازع الطبقات ، لا يعترف بعلاقة بينها غير علاقة العداوة والاغتصاب ، ولا يؤمن بما قررته تجارب الأمم جميعا من تعاون الطبقات فيما بينها وتبادل النفع في مصالحها ، وهذه عقيدة ضالة لا محل لمناقشتها وتفنيدها في هذه المقدمة ، وقد عرضنا غير مرة لنقدها وتفصيل أخطائها حيث تناولنا مذهب كارل ماركس بالتفصيل والتعقيب ٠ (١) ولكننا في صدد الكلام عن مستقبل الدولة الشيوعية ، ينبغي أن نلم الماما عاجلا بأثر هذه الحرب الطبقية في انتظام المجتمع ، وتنسيق أعماله ، وقيام بنيانه ، وتقرير حظه من الدوام ٠ اذ كان حرمان المجتمع من تبادل الجهود مخلا لا محالة بانتظامه ، منتقصا من عوامل دوامه ، ومتى ثبت بالتجربة الطويلة أن الجهود متبادلة والكفايات منوعة وأن :

الناس للناس من بدو ومن حضر

بعض لبعض وان لم يشعروا خدم

كما قال حكيم المعرة — فذهاب هذا التبادل داع من دواعي النقص والعجز لا بد أن تظهر عواقبه مع الزمن ، كما يظهر كل نقص يتعلق في بنية المجتمع ، ولا يتأتى تعويضه بغير الرجعة الى النظام القديم ٠

ومن التعجل في الحكم على هذه المسائل الخطيرة أن ننظر الى التنازع بين الطبقات ، ولا ننظر معه الى التعاون بينها ، والى حاجة كل منها الى الطبقة الأخرى ٠ فان تنازع الأفراد لعلى أشد ما يكون بين أبناء الأمم ، فلم يكن مع ذلك مانعا لهم أن يشعروا بحاجة بعضهم الى بعض ، وأن ينتفعوا بسداد هذه الحاجة من جملة أعمالهم ومحاولاتهم ، ومنها أعمال التنازع والتنافس التي تتعادل آثارها أحيانا وآثار التعاون المقصود ٠

الا ان الشيوعيين ينخدعون بسهولة التسلط على الطبقة التي يسمونها طبقة الصعاليك ، ويغترون بما يلوح لهم في مبدأ الأمر أنه حالة دائمة مستقرة ، فيمعنون في حرب الطبقات ، ويقولون انهم يزيلون بهذه الحرب أعداء المجتمع ممن يسمونهم بالغاصبين والمستغلين ، ويغريهم بالتمادي في خطة هذا الاستعمار الحديث أنهم يجدون منه مساعدات كثيرة ولا يتبينون ما وراء هذه المساعدات من عوامل المناوأة أو المقاومة المؤجلة الى حينها ٠

احدى هذه المساعدات الكثيرة ، أن طبقة الصعاليك مقصورة المطالب

---

(١) كتاب الشيوعية والانسانية للمؤلف ٠

من كفاية الحكم وحسن السياسة والتدبير ، وفى وسعه اذا دبر هذه المطالب على ضرورات مادية لا يعجز الحاكم عن تدبيرها ، وان يكن قليل النصيب المقصورة على الضرورات المادية ، أن يغلو ما يشاء فى الحجر على حرية الآراء ، والحد من نشاط المفكرين وأصحاب المشاركة فى الشئون السياسية • وقد يسترسل فى هذا الغلو ويمعن فى هذا الاستبداد زمنا طويلا ولا يحس من رعيته ضجرا ولا علامة على الشعور بالحرمان من تلك الحرية ، التى تعد من مقومات الحياة الاجتماعية فى كل بيئة متعددة الطبقات متنوعة المزايا والكفايات • ولسنا نعتقد أن الطبقة المسماه عندهم بطبقة الصعاليك محرومة من المطالب الروحية والأشواق النفسية ، بل لا نعتقد أن انسانا قط يحرم هذه الأشــواق طول حياته ان جاز أن يحرمها فترة من الزمن • غير أن طبقتهم المسماه بالصعاليك ترضيهم بسهولة خداعها وتزييف مطالبها الروحية وتتقبل منهم الدعاية المغشوشة ، فلا يتيسر لها أن تميز بين تلك الدعـاية وبين الحقيقة المخدومة عنها ، وربما طال على هذه الخديعة ما لم تقطعها على الحاكمين والمحكومين أزمة دائمة تشغلهم عن مطالب الروح والجسد على السواء ، وتتيح للحاكمين متنفسا من الوقت لا يضيرهم فيه أن يثوب محكوموهم الى ضرب من العزاء الروحى يأتيهم عفو الساعة من وحى الظروف •

ومساعدة أخرى من هذه المســاعدات الكثيرة يلقـاها الحـاكمون المستبدون من طبقة الصعاليك تملى لهم فى الطغيان وتغمض العيون عمـا يقترفون من العسف والجبروت ، ولــو أفضى الى اهـدار الأرواح وسـفك الدماء ••• تلك المساعدة هى طوية الجسد والنقمة التى ينطوى عليهـا اناس كثيرون من المحرومين والوضعـاء ، وتقترن بهـا رذيلة القحة وحب التطاول على من يفضلونهم بالجاه أو المعرفة ، كما تقترن بها نزعة التشفى من كل عزيز يهان على مرأى من قوم طال عليهم احتمال الهوان •

وقد يطيل فى أجل هذه المساعدات أن تنحصر الأمة وراء حدودها ، تنقطع المعـاملة الشعبية بينهـا وبين جيرانها ، فلا يعسر على الحـاكم أن يصور لها حالتها وحالة أولئك الجيران على الصورة التى ترضيها •

ولا نظن أن هذه المساعدات من شــأنها أن تدوم طويلا بالقيــاس الى أعمارهم الأمم أو الى عهود للنظم الحكومية ، فان الحقبة التى مرت على النظام الشيوعى بعد القضاء على النبلاء والأثرياء لم تزد على عشرين سنة ، ولم تخل هذه السنون العشرون مع ذلك من المذابح التى كان ضحاياها أجمعون من صميم طبقة الصعاليك ، أو ممن ينعتون أنفسهم بهذا النعت وينتسبون الى تلك الطبقة لأنهم لا يستطيعون أن ينتسبوا الى طبقة غيرها •

غير أن الحالة لم تبلغ بعد مبلغ الحرج الشديد الذى يزلزل دعائم الحكم ويطيح بالحاكم فى دفعة جارفة من ثورة الجماهير • ولهذا ثابر المستعمرون المحدثون على خطتهم ، واستمرأوا مغبة جبروتهم ، وراحوا يطبقون تلك الخطة على كل أمة دخلوا فيها وأخذوا بزمام حكومتها ، وقد أخذوا بزمام الحكومة فى بلاد تفضل بلادهم علما وحضارة كبلاد بحر البلطيق ، وأولها بلاد فنلندا التى خلت من الأميين واتسعت على ضيقها لعدد من الجامعات ينافس الجامعات الروسية • وجاء فى تقريرات بعض الولاة الروسيين المشرفين على حكومات بحر البلطيق أنهم وجدوا طوائف المتعلمين وأبناء الطبقات المتوسطة فى هذه الأمم ساخطين محنقين لا تؤمن ثورتهم على النظام القائم بين حين وحين ، واقترح الولاة الشيوعيون فى تقاريرهم أن نساس تلك الطوائف بالهوادة ، وأن تمنح بعض الحقوق التى تعودتها ولا يتسنى اخضاعها مع حرمانها منها ، فكان جواب المراجع العليا فى الكرملين أنهم قرعوا كتاب تلك التقارير واتهموهم بجهل المذهب الماركسى أو بخيانة المبادىء الشيوعية ، لأن هذه المبادىء لا تعرف شيئا يسمى طوائف المتعلمين أو طبقة المتوسطين وانما تعرف شيئا واحدا هو الذى يسمونه طبقة الصعاليك •

ومما كشفه أولئك المستعمرون المحدثون من مساعدات حرب الطبقات لهم ، أنهم وجدوا فيها أسلوبا حاضرا من أساليب الدعاية دفاعا عن استعمارهم للبلاد الغربية عنهم ، كالبلاد المجرية أو الرومانية أو البولونية • فلم يكن أيسر عليهم من اتهام الثائرين على طغيانهم بأنهم بقية من بقايا طبقات الأشراف والنبلاء ، أو من يطلقون عليهم فى تلك الدعاية اسم الاقطاعيين ••• وانهم ليسرفون فى دعايتهم هذه اسرافا يغرى بالضحك لولا أنها مضحكات مبكيات ، وكذلك فعلوا فى دفاعهم عن طغيانهم وعجزهم الذى أثار عليهم طبقة العمال والصناع فى بولونيا والمجر ، فإن العالم أجمع كان يتلقى أخبار الأضراب فى المناجم والمصانع ، ويعلم من أفواه المهاجرين الى البلاد الأوربية أنهم جميعا من صميم الطبقة المسماة عندهم بطبقة الصعاليك ، ثم يقف وكلاء الدولة الروسية فى هيئات الأمم ، فلا يفتح عليهم بدفاع يسوغون به حكمهم لأقوام لا تريدهم ولا تقبلهم ، ولا تسعد فى ظلهم ـ الا بذلك الدفاع المضحك الذى يدور ثم يدور فى نطاق واحد : وهو أن أولئك الصعاليك بقية من بقايا النبلاء اوالمستغلين والاقطاعيين ، ولم نسمع قط حتى من أولئك الشيوعيين المحدثين أنهم قبضوا على ثائر واحد يصح أن ينتمى الى طبقات النبلاء وأصحاب الاقطاع ، بل كان الثائرون المقبوض عليهم المنفيون عن بلادهم الوفا من ذوى الصناعات اليدوية ومن الشبان الناشئين الذين نشأوا بعد زوال كل بيت من بيوت الأسر العريقة وتعلموا بعد قيام الشيوعية فى أوربا الوسطى بعدة سنوات •

★★★

الى هنا ونحن فى صميم الحاضر الذى بين ايدينا لا نتطلع الى نبوءة من وراء الحجاب ، اللهم الا أن نمد البصر مستنبئين عما وراء ذلك الحجاب الذى يسمى تارة بالسد الحديدى ، ويسمى تارة أخرى بالستار الكثيف ٠

نحن فى صميم الحاضر فيما أجملنا الكلام عليه آنفا ، فماذا نرى لو أننا مددنا البصر الى المستقبل القريب ثم الى المستقبل البعيد ؟

علامتان ناطقتان تدلان على أن دوام هذه الحال من المحال ، وأن بناء مجتمع من المجتمعات فى طبقة واحدة أمر لم يتحقق من قبل ، ولا نرى من التجربة التى دامت فى بلاد الروس أكثر من أربعين سنة أنه قابل للتحقيق فى هذا الزمان ٠

وهما علامتان يبدو من ظاهرهما أنهما نقيضان متباعدان ، ويبدو بعد نظرة يسيرة أنهما فى باطن الأمر علامة واحدة منظورة من وجهين ٠

العلامة الأولى : طول العهد الذى تولى فيه ستالين حكم البلاد الروسية منفردا بغير شريك ٠

والعلامة الثانية : موقف أتباعه بعد موته بنحو ثلاث سنوات ، واضطرارهم لمصارحة الشعب الروسى ومصارحة العالم كله بسوء حكم ستالين ، الذى عاونوه عليه واشتركوا فيه ، وكانوا طوال عهده أدواته الطيعة فى تنفيذ مراميه ٠

فالعهد الطويل الذى قضاه ستالين حاكما مستبدا ، مستأثرا بالطغيان الذى لا طغيان بعده على بلاد الروس جميعا – دليل قاطع على بطلان النظام الحكومى من أساسه ، لأن هذا الأساس قائم على حرب الطبقات واستئصال كل طبقة فى المجتمع ما عدا الطبقة المسماة بطبقة الصعاليك ، وترجع هذه النزعة الى اعتقادهم أن رءوس الأموال هى التى تخلق الطبقات الاجتماعية، وهى التى تمكن أصحاب الأموال من تسخير من عداها من الطبقات العاملة والطبقات الفقيرة على الاجمال ٠ فاذا زالت رءوس الأموال ، زالت الطبقات الحاكمة المستغلة ، وزالت معها ذريعة الطغيان والاستبداد ، وتعذر على الطبقة العليا – فضلا عن الفرد الواحد – أن تستبد بمن دونها من أبناء الأمة ٠

ولو كان هذا صحيحا لما استطاع ستالين أن يحكم روسيا زهاء ثلث قرن بعد القضاء على رءوس الأموال ، واستئصال الملايين من أصحابها وحصر المجتمع كله فى تلك الطبقة المسماة عندهم بطبقة الصعاليك ٠

وقد ألمعنا الى هذه الملاحظة ، فى مقدمتنا على الخطاب الذى ألقاه خليفة ستالين منددا بسياسته فى مؤتمر الحزب العشرين • (١) فسألنا : (كيف استطاع ستالين أن يستبد هذا الاستبداد فى مجتمع زالت منه رءوس الأموال ؟ كيف استطاع أن يجمع فى يديه سلطانا لم يستطعه قيصر ، ولا شاهنشاه ، ولا حاكم بأمره من طغاة القرون الأولى ؟ أبالدهاء الشخصى يستطاع هذا فى بلد زالت منه رءوس الأموال ؟ أبالنفوذ السياسى يستطاع هذا فى ظل مذهب يقال فيه ان النفوذ السياسى كله تبع للمنافع الاقتصادية ؟ وأن السياسة وحدها لا توصل الى شىء من النفوذ حيث يكون رأس المال أو حيث لا يكون ؟ واذا كانت المنافع الاقتصادية تتيح لفرد واحد أن يستبد هذا الاستبداد على الرغم من أنوف الأقطاب والأنداد فى بلاده ــ فماذا تبلغ العيوب التى تثيرنا من رأس المال الى جانب هذا الشر المستطير الذى يهون عنده كل ما فى رأس المال من الشرور ؟ لقد استطاع ستالين أن يستبد بالرأى وأن يضرب بأقوال القواد والسفراء والخبراء عرض الحائط فى خطب من أعظم الخطوب التى تهدد سلامة بلاده : وهو خطب الغزوة الالمانية ، لأنه اعتقد أن الأخبار التى تصل اليه من الخارج عن قرب الشروع فى هذه الغزوة ملفقة لاستدراجه الى الحرب ، ولم يكلف نفسه عناء المراجعة لتصحيح هذا الاعتقاد ، اكتفاء بتقريره أو تخمينه الذى لا يخيب فى ظنه ، وأصر على تكذيب النذر المتوالية بابتداء الغزوة الى ما بعد ابتدائها واقتحام الجيوش الالمانية للحدود الروسية • وقد استطاع فى الشئون الداخلية أن يستبد فيها استبدادا أشد من هذا الاستبداد ، لأنه قتل نحو سبعين فى المائة من أعضاء لجنة الحزب المركزية التى يتولى باسمها مركزه فى الحزب وفى الحكومة •

ومن كلام خروشيشف عن عناد ستالين فى أمر الغزوة الالمانية بعد سرد النذر التى توالت عليه من الخارج والداخل قوله فى خطابه كما جاء فى ترجمته العربية : « وكتب كوربنوس الذى كان قائدا لمنطقة كييف العسكرية ــ وقد قتل فيما بعد أثناء وجوده بالجبهة ــ الى ستالين يقول ان الجيوش الالمانية وصلت الى نهر باج وأنها تتهيأ لشن الهجوم وأنه من المحتمل أن تقوم بهذا الهجوم فى القريب العاجل ، وقد اقترح كوربنوس فى هذا المقام تنظيم دفاع قوى ••• ولكن موسكو أجابت على هذه الاقتراحات بأن تنفيذها يعتبر استفزازا وأنه ينبغى عدم الاقدام على اتخاذ أية استعدادات دفاعية على الحدود حتى لا نتيح للالمان فرصة التذرع بأى سبب للقيام بعمل عسكرى ضدنا •» ••• أما طغيانه فى الشئون الداخلية ، ففى كلام مسهب عنه يطلع عليه القارىء فى مكانه من الترجمة ، وخلاصته كما جاء فى الخطاب أنه من بين المائة والتسعة والثلاثين الذين انتخبوا فى المؤتمر السابع عشر ، ثمانية

---

(١) ستالين فى رأى خلفائه •

وتسعون اعتقلوا وأعدموا رميا بالرصاص خلال عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ على الخصوص ··· ولم يكن هذا مصير أعضاء اللجنة المركزية فحسب ، ولكنه كان مصير غالبية المندوبين الذين اشتركوا فى المؤتمر السابع عشر فمن ١٩٦٦ مندوبا كانوا يملكون حق الاشتراك فى الاقتراع أو يتمتعون بحقوق استشارية ألقى القبض على ١١٠٨ أشخاص بتهمة ارتكاب جرائم مناهضة للثورة ··· »

هذه نبذة من خطاب خليفة ستالين ـ خروشيشيف ـ تجمل لنا تفصيلاته عن مدى تلك السيطرة التى حصرها طاغية الشيوعية بين يديه فى حكمه لمئات الملايين من بنى آدم واستبداده بأمورهم العامة والخاصة التى تتعلق بها سلامة الأمة بحذافيرها وسلامة الأفراد متفرقين · فكيف تهيأ لفرد واحد أن يجمع هذه السيطرة بين يديه فى بلاد زالت منها رءوس الأموال ؟ مهما يحاول جماعة المكابرين والمغالطين من دعاة المذهب فى تفسير هذه الظاهرة ، فخلاصتها التى لا ريب فيها أن الاستبداد فى أقبح صوره ممكن بعد زوال الطبقات وقيام طبقة واحدة فى المجتمع بأسره · وقد سمح كارل ماركس لنفسه بالحكم على مجتمع الصناعة الكبرى فى أوربا الغربية ولم ينقض عليه ثلاثون سنة ، فلا تثريب علينا اذا حكمنا على مجتمع الطبقة الواحدة بالزوال ، بعد هذه التجربة التى لا تقبل التفسير بعلة من علل المكابرين المغالطين ، ولا تفسير لها الا أن حكاية الطبقة الواحدة من خرافات الخيال السقيم والطبع الوخيم ·

هذه العلامة تؤيدها علامة ثانية من موقف أتباع ستالين بعد أن اضطرتهم الحوادث الى كشف النقاب عن هذه الفضيحة ، والتشهير بالعهد الاستالينى ، وهو فى الواقع عهدهم أجمعين ، وكلما اعتذروا بعذر فيه من أعذار الاضطرار أو الاختيار ، كان هذا العذر أدعى الى الصاق تبعه بهم من الصمت والروغان ·

ففى البلاد الديمقراطية يحدث كثيرا أن تسقط حكومة وتقوم على أعقابها حكومة أخرى من حزب آخر تلومها وتنحى عليها وتعد الأمة بتصحيح أخطائها وتعديل برامجها واجتناب أساليبها فى تدبير المصالح العامة · ولا يدل ذلك على تداعى النظام الحكومى أو على بطلان القواعد الدستورية التى تتعاقب الوزارات على أساسها · فان طبيعة الديمقراطية تجعل هذا التحول طريقا واحدا من طرق الحكم يتعاقب عليه السالكون ، ولا يدعو الأمر الى الخروج من ذلك الطريق ·

أما أن يحدث فى الحزب الواحد والمذهب الواحد والعهد الواحد تبديل كذلك التبديل فى مناهج الحكم ، فهو نقد صريح للقواعد التى يقوم عليها النظام ولا تحتمل التبديل الا بشمول هذا التبديل للمذهب كله ·

وقد كان موقف الخلفاء المشاركين لستالين فى عهده ، والناقمين عليه بعد ذهابه ، علامة أخرى على وجوب تبديل ذلك المذهب وتبديل القواعد التى يقوم عليها • فانه موقف طبقة حاكمة لا أكثر ولا أقل جمعت بين أيديها أزمة السلطان ، واستأثرت بها دون الملايين من الرعايا الغافلين عما يجرى فى دواوين الحكومة أو فى برامجها العامة • فقد كان قيام الصناعة الكبرى سببا لظهور طبقة جديدة أقوى نفوذا من طبقة رأس المال فى البلاد الأخرى ، وارسخ قدما فى دواوين الحكم من كل حكومة دستورية تحتل كراس الدولة مع بقاء رءوس الأموال ، سواء بقيت فى أيدى الأفراد أو أيدى الشركات •

★★★

ونحسب أن القارىء يتعجلنا الآن ولا ينتظر نبوءة المستقبل لنكشف بها عما هو حاصل غنى عن النبوءات ، فلا حرج علينا من أن نقول بغير تردد ان الحالة فى روسيا لم تدم كما أرادوها أن تدوم ، ويغنينا عن النبوءات الجزاف فوق هذا ، أنه ما من قارىء فى العصر الحاضر يجهل أن المذهب الماركسى لم يفم قط فى البلاد الروسية منذ ثورتها الكبرى وأنه لم يزل يتحول ويتبدل عاما بعد عام حتى لو رآه كارل ماركس ــ بل لو رآه لينين ــ فى هذه الأيام لما عرفه ، ولا عرف أن النظام القائم فى البلاد تطبيق للمبادىء والبرامج التى دعا اليها ماركس وتبسط فيها لينين فقد سمحوا باقامة الشعائر الدينية وسمحوا بملك الأرض وتوريثها للأعقاب ، وسمحوا بتقدير الأثمان وتسعير السلع من الكماليات والضروريات ، وسمحوا بتفاوت الأجور وأحوال المعيشة بين طبقة العمال أنفسهم ، فضلا عن طبقة الخبراء والحكام ، وسمحوا بالفرق الكبير فى جرايات الطعام وأماكن السكنى ودرجات التشريف والتعظيم ، بل سمحوا بالفرق فى درجات السكك الحديدية ووسائل المواصلات ، ولم يتركوا شيئا واحدا يتساوى فيه أبناء الطبقة العاملة الا ما يتساوى فيه أبناء هذه الطبقة فى جميع الأقطار سواء كانت من الأقطار الديمقراطية أو الفاشية أو التى تنتحل الاشتراكية باسم من مختلف الأسماء •

ولا ننسى أن زوال الطبقات كان فى رأى الماركسيين نهاية مقدورة لأمم العالم بأسره ، وليست مقصورة على أمة واحدة تنتحل الشيوعية وحولها من يدين بغير هذا المذهب ، أو من يعارضه ويعمل على اسقاطه •

ولا ننسى كذلك أن قيام نظام يهدد النظم المجاورة له ، مستحيل ما لم يتحول أحد النظامين عن غايته ، فلا مناص من تحول بلاد الروس عن الشيوعية ، أو تحول البلاد الأخرى عن المذاهب التى تقاومها وتعاديها ، وقد فطن ولاة الأمر فى روسيا الى هذه الحقيقة ، فعملوا جهدهم فى الدعاية والدسيسة لتحويل أمم العالم عن نظمها الاجتماعية ، لأنهم أيقنوا أن دوام

نظامهم مستحيل كما أسلفنا ، مع دوام النظم الاجتماعية الأخرى • فالآن يشعر ولاة الأمر فى البلاد الروسية بالحيرة الشديدة بين اتباع تلك السياسة وبين العدول عنها ، لأنهم وجدوا أن اثارة الأمم المخالفة لهم فى النظم الاجتماعية تثير عليهم حربا شعواء من جميع تلك الأمم ، وتقيم بينهم وبينها حواجز من العداوات وضروب الحجر الاقتصادى والسياسى لا تطيقها أمة فى هذا الزمن الذى اشتبكت فيه العلاقات واتصلت المعاملات •

هذا مع أن اضطرارهم هم أنفسهم الى التحول عن مبادئهم خليق أن يجعل العدول عن السياسة الدعاية العدائية ضرورة مساوية على الاقل لضرورة الاجتهاد فى تحويل العالم بأسره الى نظام الشيوعية ، وبخاصة بعد أن ثبت لهم أنهم عاجزون عن اقامة ذلك النظام بمبادئه المقررة عندهم ، فهم أحرى أن يعجزوا عن إقامته عند غيرهم ، ولا سيما اذا كانت محاولة ذلك كمحاولة اعلان الحرب على عشرات من الدول والحكومات والشعوب •

وآخر ما اهتدوا اليه من مخرج للتخلص من هذه الحيرة ، أنهم أعلنوا حل الكومنترن ، وستبدلوا به هيئة الكومنفورم ، ثم أعلنوا حل الكومنفورم وزعموا أنهم بمعزل عن أحزاب الشيوعية خارج البلاد الروسية • الا أن تكون الرابطة بينهم كافة من قبيل الرابطة بين أصحاب الرأى المشتركين فى الأمل والشعور •

لابد اذن من تحول روسيا عن الشيوعية ، أو تحول العالم بأسره الى الشيوعية ، وقد رأينا أن الروسيا « تتحول ، وأنها تبتعد عن مذهب كارل ماركس قبل أن يقترب منه سواها • فمن علامات الحاضر التى تنبىء عن المستقبل نبأ اليقين أن مصير روسيا فى غير اتجاه الشيوعية ، وأن مصير الشيوعية نفسها الى الزوال ، ويعجل بزوالها أنها مذهب متطرف غاية التطرف لا يقبل التوسط بين الطرفين • فان قبل التوسط بين آراء كارل ماركس وغيرها من الآراء الاجتماعية • فتلك هى الاشتراكية المعتدلة ، أو تلك هى الاشتراكية الديمقراطية التى تدين بها أكثر شعوب العالم فى العصر الحاضر ، وتستطيع أن تتوسع فيها ، وتمعن فى تنفيذها حيث يعجز المتعصبون للمذهب الشيوعى الماركسى عن تنفيذ ما هم مصرون عليه متشبثون معه بتعلات الأوهام والاحلام •

★★★

مستقبل روسيا الاجتماعى اذن فى غير اتجاه الشيوعية ، ولعلها ترجع الى الاشتراكية المعتدلة يوم تكون الشعوب الأخرى قد تقدمت الى هذه الاشتراكية بخطوات أثبت من خطوات الشيوعيين وأولى منها بالنجاح والدوام •

مستقبلها الاجتماعي في غير الاتجاه الشيوعي ... فما هو مستقبلها السياسي ياترى في محيط العلاقات الدولية ؟

قبل عشرين سنة كان من المظنون أن العاطفة الشيوعية وحدها ، كافية لتوثيق عرى الصداقة بينها وبين الأمم التي دخلت في حظيرة الدولة الروسية بالقوة أو بالمساومة ، وكان من المظنون أن تلك الأمم ترضى بحكم الروس لها لأنها شيوعية وهم شيوعيون ، كما كان أبناء القرون الوسطى يرضون بالخضوع لغيرهم لأنهم من أتباع دينهم أو عقيدتهم .

فأما والعقيدة الشيوعية لا تستقر على قرار ، ولا توثق عرى الصداقة بين قادتها ومريديها في بلادهم ، فمن التعلق بالمحال أن يقوم عليها أمل القوم في تمكين الامبراطورية الروسية من اخضاع جيرانها المحيطين بهم لأنها شيوعية وهم شيوعيون ، وأدعى من ذلك الى توهين ذلك الأمل أن الحكومة الروسية عجزت عن اقناع الخاضعين لها بحظهم من المعيشة بعد أن عجزت عن اقناعهم بالرأي والعقيدة ، فلا هم مستقلون ينعمون بفخر الاستقلال ، ولا هم راضون عن معيشتهم يتعزون بها عن ضياع استقلالهم ، ولا هم مؤمنون بحق الروس في السيطرة عليهم والارتفاع فوق كواهلهم ، فلا جرم نرى في كل مكان يحيط بالدولة الروسية من جيرانها الخاضعين لها بوادر القلق والاضطراب بل بوادر الفتنة والثورة ، بل الثورة الجامحة التي لا تخبو اليوم حتى تنفجر بعد أيام .

وربما كان شأن الدول المستقلة التي تصادق روسيا ، ويحسبها من يغتر بالأسماء في عداد الشيوعيين ، أخطر على الدولة الروسية من جيرانها الخاضعين لسيادتها على صورة من صور الخضوع المختلفة ... ولنضرب المثل بأكبر هذه الدول وهي دولة الصين الحمراء في عرف المغترين بالأسماء ... ! فهذه الدولة الحمراء أخطر على سادة الكرملين من المجر والبلغار والبولونيين .

هل يطمئن سادة الكرملين الى تقوية الصين وتعزيز مواردها الصناعية؟ انهم ان فعلوا ذلك خلقوا الى جانبهم ماردا يسحقهم بأقدامه أو يغطي بنفوذه السياسي على نفوذهم في محيط السياسة الدولية .

هل يجهر سادة الكرملين بالحذر من ذلك المارد ، ويعملون جهرة أو سرا على اضعافه وتعويق نهوضه ؟ أنهم اذن يدفعون به الى أحضان الدول التي تعاونه اذا أحجموا هم عن معاونته ولو من قبيل النكاية بأعدائهم سادة الكرملين . ولا يفوتن أحدا أن الصين قد سبقت الروسيا الحمراء الى مفارقة

المذهب الماركسى ، لأنها بدأت ثورتها باصطناع الفلاحين ، وتوزيع الأرض عليهم ، وجعلتهم ملاكا للأراضى الزراعية ، يحاربون الشيوعية الماركسية لو انها فرضت عليهم ، الا أن تؤول الى مذهب من مذاهب الاشتراكية المعتدلة ٠

فاذا كانت الروسيا الاجتماعية صائرة الى غير الشيوعية ، فالروسيا الأمبراطورية لا تثبت على قدمين راسختين ، ولا يسعها أن تحشد فى معترك السياسة قوة تصارع فى موقف الخطر قوى المعسكر المناوىء لمعسكرها ٠

وبعيد جدا أن تعود روسيا الى القيصرية ، وغير قريب أن تعود الى المتحدة كما كانت قبل أن توحدها فتوح القياصرة ٠

ومن يدرى ؟ لعل روسيا الحمراء ستصبح بين الأمم بيضاء ناصعة البياض حين يحمر غيرها بعض الاحمرار اذا جاز أن توصف الاشتراكية اليسارية بالصبغة الحمراء ٠

وبعيد جدا أن تعود روسيا الى القيصرية ، وغير قريب أن تعود الى نظام رأس المال كما يعهده العالم بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ٠

أما ما هو أبعد من هذا أو ذاك فهو أن يقوم مستقبل روسيا على الشيوعية أو على الامبراطورية الواسعة باسم الشيوعية ٠

والله أعلم بالغيب والشهادة ٠

★★★

وبعد ، فان الرأى الذى بسطته هذه الرسالة عن مستقبل روسيا ، قد شرحه بطبيعة الحال مؤلفها كما بداله من تجاربه الكثيرة ومشاهداته القريبة، وهى التجارب والمشاهدات التى تؤهله لها معاشرته الطويلة لولاة الأمر فى البلاد الروسية ، واختلاطه عن كثب بجمهرة الشعب هناك من المثقفين وعامة الدهماء ٠ ونحن لا نقدم لهذه الرسائل لنؤيد مؤلفيها فى ارائهم ، أو نرجح وجهة نظرهم على غيرها من وجهات النظر المتضاربة ، ولكننا انما نقدم لها لنحيطها باطار من الآراء المتداولة فى موضوعاتها ، والآراء التى يلوح لنا أنها أدنى من سواها الى القبول ومطابقة الأحوال ، ثم يأتى رأى مؤلف الرسالة بوجهة نظر من وجهات نظر شتى يقرنها من شاء بما عداها ليرجح ما شاء بين مذاهبها المتشعبة ٠

على أننا نحسب أن الأستاذ ليونارد شابيرو ، مؤلف هذه الرسالة ، لم يناقض رأيا من الآراء الراجحة فى نظرته الى مستقبل روسيا ، بل رسم لهذا المستقبل طريقين يوافقان وجهات النظر جميعا ، لأنه وكل الحكم على مستقبل الأمة الى قوتين متعارضتين فى الغاية والخطة : وهما القوة المتمثلة فى ولاة الأمر وأصحاب السيطرة الفعلية على حكومة البلاد ، ثم القوة المتمثلة فى الشعب المحكوم والجمهرة الغالبة من سواد الرعية ، وفى مقدمتهم جمهرة المثقفين والمستنيرين ، وكلتا القوتين ، كما تراءى للمؤلف ، ترمى الى غاية لا بد أن تقاطع الغاية الأخرى فى يوم من الأيام ، لأن ولاة الأمر يهتدون بالتسليح ، واستبقاء السلطان فى أيديهم ، بمسابقة الدول الكبرى فى أنواع السلاح ، وليست هذه غاية يكترث لها الشعب الراغب فى رخاء العيش واستقرار السلام واقامة العلاقات بين بلاده وسائر بلاد العالم على أسس المودة وتبادل المعاملات بالحسنى ·

قال المؤلف الخبير « اذا نظرنا الى المستقبل ، وهو ما يعنينا ان ننظر اليه ، رأينا سمتين بارزتين توحيان بأن المعارضة الكامنة للنظام قد تكتسب تأثيرا وأهمية كافيتين لأحداث تغيير فى طبيعة ذلك النظام ، وأنها اما أن تنأى بالدكتاتورية عن الانسياق مع تيار الأفكار المتطرفة المستولية عليها ، أو ترغمها على فسح الطريق لنظام من أنظمة الحكم أقرب الى المعقول » ·

ثم قال : « ان مصلحة الدكتاتورية ستتعارض فى النهاية مع مصالح الطبقة الوحيدة التى ترتكز عليها لدوام بقائها ــ وهى طبقة الارستقراطية المتخصصة ــ والدكتاتورية ، مدفوعة بدافع سياسة الصراع الدينمى . وهو ميراث النظرية الماركسية ، بسعيها لاذاعة الشيوعية فى العالم ــ تتجه الى التوسع ، وتزيد التوتر الدولى نتيجة لذلك ، ومعنى هذا انخفاض مستوى المعيشة لاحتمال أعباء التسليح ، وتغذية حمى الحرب لتسويغ حاجة الحكومة المستمرة (الى الكبح والشدة) ولكن الصفوة التى تعتمد الحكومة الشيوعية عليها ، والتى تمدها بالقوة والكفاية اللتين تدين لهمـا بالبقاء ، ليس لهـا مثل هذا الهدف الدينامى ومصالحها على النقيض من ذلك هى السلام مع العالم الخارجى ، وتراخى التوتر العالمى تبعا لذلك ، وتقليل نفقات التسليح لمعالجة مستوى المعيشة المنخفض ، وربما تكون طبقة المتخصصين صاحبة الامتيازات أو الضباط فى روسـيا السوفيتية لم تتحقق بعد من وجود هذا التناقض فى الأهداف ، وربما كانوا لا يزالون يعتقدون كما قيل لهم مرارا وتكرارا خلال سبع وثلاثين سنة ، أن هدف العالم الحر هو تحطيم روسيا وتقطيع أوصالها · ولكن فى اليوم الذى يعرفون فيه أنه ليس هناك عداء بينهم وبين العالم الحـر ، وأن الذى يهدد مصالحهم ليس هــو الغــرب الرأسمالى وانما هم حكامهم الشيوعيون ، تظهر فى الاتحاد السوفييتى قوة

جديدة غير منتظرة ، وواجب الغرب أن يبذل ما يستطيع لتقريب ساعة اليقظة للابقاء على السلام والحرية ٠

هذا هو محور الصراع الذى يتوقف مستقبل روسيا على نتيجته ، وكل ما ذكره المؤلف فى هذه النبذة الموجـزة صحيح متفق عليه ٠ ولكنه جانب واحد ، يقابله جانب آخر لا يقل عنه فى الخطر وفى القـدرة على توجيه مستبقبل الدولة الروسية والأمة الروسية على السواء ٠

ذلك الجانب الأخر الذى لم يظفر من مؤلفنا بمثـل اهتمامه بمحور الصراع الداخلى بين الشعب وحكومته ـ هو ذلك الموقف المستحيل بين روسيا والعالم كله ، ونقول انه موقف مستحيل لأنه لا بد أن يسفر عن تحويل روسيا للعالم عن نظمه الاجتماعية أو تحويل العالم لروسيا عن نظامها القائم فيها الى اليوم ٠

اما أن تتحول روسيا : فقد ذهبت اذن سطوة الدكتاتورية فيها ٠٠٠ واما أن يتحول العالم : فقد شملته الدكتاتورية الروسية من أقصـاه الى أقصاه ، ونظرة يسيرة الى كلا الاحتمالين كافية لترجيح هذا أو ذاك ، وعندنا أن الجانب الراجح منهما هو تحول الروسـيا فى داخلهـا وفى عـلاقاتها العالمية ٠ وهذه مقدمة تتبعها مقدمات كثيرة ٠ وتتبع تلك المقدمات أطوار متعاقبة لا تزال اليوم وراء حجاب الغيب المجهول ٠

يقول المؤلف : (ان مستقبل روسيا لا يمكن أن ينظر اليه بمعزل عن مستقبل سائر الانسانية ، وما دامت الشيوعية لا تكف عن الضغط على حرية رعاياها والشعوب الخاضعة لها ، فان التهديد بالخـراب الشـامل لا زال قائما ، ولذلك فان سلام العالم يمكن أن يتوقف فى النهاية على تصحيح هؤلاء الذين يعيشون الآن تحت الحكم الشيوعى على أن يضطروا حكامهم الى نبذ نظرية لا تؤدى الا الى الخراب)

أو صحيح هذا ؟

نعم : أنه لصحيح بالقدر الذى ذهب اليه المؤلف اذ قال ان سلام العالم يمكن أن يتوقف فى النهاية على مصير روسيا ٠٠٠ الا أننا ينبغى أن نقف عند تقدير الامكان ولا نتجاوزه الى الحتم واللزوم الذى لا فكاك منه ٠ فان العالم أكبر جدا من أن يتوقف مصيره النهائى على مصير أمة واحدة أو أمم عدة تحكمها دولة واحدة ، لقد تبدلت الامبراطورية الرومانية ولم يخرب العالم ، بل تجددت فيه بعدها قوى عظيمة للتعمير واستئناف ركب الحضارة على منهاج غير منهـاج تلك الـدولة ، وقد تبدلت الامبراطورية المقدسة وتبدلت بعدهـا امبراطوريات أعظم منها ولم يخرب العالم ، بل اتسعت فيه مناهج الحضارة ونشطت فيه أمم وحكومات كانت مغمورة خاملة قبل ذاك ٠

والحقأن المؤلف الخبيربالمسألة التى تصدى لبحثها ، لم يغفل عن ناحية واحدة من نواحيها وان كان قد أعار بعض هذه النواحى قسطا أوفر من الذى أعاره لغيرها ٠

ولعله من المطابقة بين خبرة المؤلف وخبرة المترجم الى اللغة العربية أن التاريخ العصرى شاغل يسترعى عناية المؤلف الخبير والمترجم القدير . فان الأستاذ على أدهم مترجم هذه الرسالة غنى عن التعريف ، بما عهده قراؤه من دراساته التاريخية وثقافته الواسعة التى تأتى فلسفة التاريخ فى طليعتها وحسب القراء منه أنه استطاع أن يجعل من هذا البحث السياسى قطعة أدبية ترضى ذوق الأديب كما ترضى فكر الباحث المنقب عن تاريخ العالم فى عصره الحديث ٠

افلاس مذهب

لا طاقة « للمادية الشيوعية » بالبقاء

قام المذهب الشيوعى فى روسيا قبل نهاية الحرب العالمية الأولى منذ اثنتين وأربعين سنة ·

فكل من فى روسيا اليوم من رجال ونساء ولدوا فى ظل هذا الشعب ، وتربوا على عقائده وآدابه ، وانعزلوا منذ طفولتهم الى أن جاوروا سن الرشد عن كل مذهب يعارضه أو يصده عن طريقه ، لا يستثنى منهم أحد غير الشيوخ الذين ناهزوا الستين وما بعدها ·

فالذين بلغوا الأربعين من الرجال والنساء ولدوا بعد اعلان المذهب بسنتين ، فلم يعرفوا مذهبا غيره منذ تعلموا النطق بالحروف ·

والذين بلغوا الخمسين كانوا عند قيام المذهب فى الثامنة من العمر ، فتعلموا القراءة فى مدارسه ولم يتعلموا شيئا قبل أن يتعلموه ويعيشوا عليه ·

والذين ناهزوا الستين كانوا فى نحو الثامنة عشرة يوم قام المذهب الشيوعى فى بلادهم مضى عليهم ثلاث سنوات منها فى الحرب العالمية ، وبلغوا الأربعين فالخمسين فما فوقها وهم شيوعيون ظاهرا وباطنا ، أو شيوعيون بالتعلم والتربية والمعيشة ، لا يعرفون مذهبا يخالف الشيوعية ويدعو الى عمل ينقضها ·

أمة كل من فيها من رجال ونساء وشيوخ وشبان وأطفال تخضع للدعوة الشيوعية وللتربية الشيوعية ، ولا تسمع شيئا يعارض الشيوعية ·

فاذا قلنا : ان الثورة الشيوعية أبقت على أحد من غير أنصارها فالذين أبقت عليهم هم الآحاد المتفرقون أبناء الستين وما فوقها · لا يقدرون على مناهضة المذهب بدعوة ولا نفوذ ولا وسيلة عملية أو أدبية يحسب لها حساب ·

والغرض مع هذا بعيد الاحتمال · فان الثورة الشيوعية أعلنت منذ قيامها « أن من ليس معها فهو عليها » وأبادت كل من توقف عن تأييدها وان لم يكن له عمل فى مقاومتها ولكنه سواء كان فرضا بعيد الاحتمال أو مقبولا فى الحسبان لا ينتهى الى نتيجة ذات بال ، وكل ما ينتهى اليه أن يكون عدد

مجلة الازهر ذو القعدة سنة ١٣٧٨ ـ مايو سنة ١٩٥٩

المخالفين للشيوعية فى قلوبهم بضعة ألوف معزولين عن وسائل النفوذ بين الملايين من الرجال والنساء الأشداء يقودون أزمة الأعمال والآراء ٠

مائة وخمسون مليونا ، أو يزيدون ، كلهم مولودون فى ظل المذهب منقطعون عن مذاهب العالم ، عائشون فى جوه نيفا وأربعين سنة ٠

تلك « وحدة مذهبية » لم يعرف لها نظير فى تواريخ الأمم منذ كانت ، وتلك فرصة أتيحت للثورة الشيوعية لم تتهيأ قط لحركة من حركات المبادىء والدعوات الاجتماعية ، فلو كان فى هذا المذهب الشيوعى صلاح للاستقرار على دعائم الحرية وضمان الحقوق لوجب الآن أن يكون على غاية من الاستقرار والطمأنينة ، وأن يكون ولاته جميعا من الكفاة القادرين على تدبيره المخلصين فى تنفيذه ، الصادقين فى الايمان به والقيام على شئونه ، والا فكم من الزمن يكفى لتخريج الكفاة المخلصين الصادقين ، ومن أى المذاهب تستعرهم الشيوعية ان كانت لا تستطيع أن تنشئهم فى مهادها بين أبناء العشرين الى أبناء الستين ؟

نعم — يجب أن تكون للمذهب اليوم حكومته الحرة المطمئنة وحكامه الكفاة المخلصون !!

فهل هذه هو الواقع المشاهد فى البلاد الروسية ؟ هل هذا هو الواقع المشاهد فى أقوال الروس أنفسهم بل فى أقوال حكام الروس أنفسهم ، فضلا عن أقوال الأعداء والمعارضين ؟ ٠

كلا ، ليس هذا هو الواقع المشاهد كما يصفه حكام الروس ، ولايفرغون من وصفه واعادة وصفه منذ عهد ستالين الى عهد خروشيشيف الأول والأخير ٠

ستالين قضى على المئات والألوف بتهمة الخيانة والغدر بالشعب والعدوان على مصالحه وشريعة حكمه وخليفته خروشيشيف يقول أنه كان ظالما عاتيا سفاحا يخوض فى دماء الأبرياء ويفترى الكذب على خدام الأمة الأمناء ، ولكن خليفته هذا لم يلبث أن صنع بشركائه فى الحكم مثل صنيع ستالين ، ولم يزل يقتل وينفى ويعزل ويلقى تهم الخيانة على زملائه وأعوانه قبل أن يفرغ من حملته على السياسة التى سماها سياسة البغى والاجرام والتلفيق والافتراء ٠

أعادل زعيمه ستالين أم ظالم ؟ وصادق خليفته أم كاذب ؟

كلا الأمرين سواء ٠

ان كان ستالين عادلا فهناك ألوف من رؤساء الشيوعية خونة أنذال مفسدون ٠

وان كان ستالين ظالما فهناك حكومة تتولى أمور البلاد على سنة الارهاب والفسق والتضليل ٠

أما خروشيشيف فصدقه طامة وكذبه طامتان ، ومحاكاته لستالين بعد الحملة عليه دليل عجيب ، على تأصل الشر فى أركان الدولة الى أعمق الجذور ٠

ان صدق هذا الرجل يدفع المذهب الشيوعى فى أساس تكوينه ، لأنه يرينا أن الحكم الشيوعى يخول الحاكم المستبد طغيانا لم يخوله أعتى القياصرة فى أظلم عصور الظلم والاستغلال ٠

وأشد من ذلك أن يكون كاذبا على زعيم وعلى أمة وعلى حكومة كاملة ولا يفتضح له كذب ولا يمتنع عليه بعد ذلك أن يتمادى فى السياسة التى أنكرها كاذبا على جميع هؤلاء ٠

وعلى أى وجه من الوجوه لا مفر من الجزم بأن الشيوعية أفلست فى سياسة مجتمعها غاية الافلاس الذى يصاب به مذهب مجهول لسياسة المجتمعات ، وأن الشيوعيين فى بلاد كلها شيوعيون لا يقدرون بعد أربعين سنة أن يجدوا للحكم الا باغيا كاذبا سفاحا ، بين قائم منهم بالأمر أو معزول، وأن نظام الشيوعية من أساسه شر من كل نظام عرف فى ظل الاستبداد ورأس المال ، لأنه لا يأتى أن تتولاه أداة حكومية قائمة على الارهاب ٠ والتضليل ، يتأتى فيها للحاكم الفرد ما ليس يتأتى ولا تأتى من قبل ، لأمثال ، نيرون وجنكيزخان ٠

هذا هو الواقع الذى تبديه لنا أعمال الحاكمين فى روسيا وأقوالهم ، ولا حاجة به الى رأى يقول به عدو أو ناقد من بعيد ٠

مذهب قامت على قواعده أمة كاملة من الرضيع الى الشيخ الذى جاوز الخمسين ، ولم يزل حكامه بين خونة وظلمة ٠ ولم يزل فى وسع الارهاب والتضليل أن يتيح لحاكمه المطلق أن يجنى على الأرواح والأعراض والأرزاق كما يشاء ٠

ومن الواضح أن التضليل هنا يستند الى الارهاب ولا يقوم على براعة الحيلة التى تجوز على غير المضطر للخضوع ٠ فان دعواهم ـ ظالمين ومظلومين ـ على السواء أظهر من أن يقبلها سامع برىء من الخوف أو التفضيل ٠

★★★

وليس هذا هو الواقع الذى تنكشف عنه نتائج الحكم فى صميم البلاد الروسية وحدها ، بل هو الواقع فى كل مكان بسطت عليه الروسيا شيئا من نفوذها وحسبته بين ملحقاتها ونظرة عاجلة على المستعمرات الروسية ، وأشباه المستعمرات الروسية ترينا أنهم لا يبسطون نفوذهم على بلد يفصلهم منه حاجز من الحواجز الجغرافية · فكل مستعمراتهم وأشباه مستعمراتهم فى آسيا وأوربة تقع من بلادهم على مد الذراع من قوة الارهاب المسلح ، ولم يستطيعوا بالتضليل وحده أن يستغنوا عن الارهاب المسلح أو الجاسوسية المسلحة ، ولهذا تمكن « تيتو » فى يوغسلافيا من الخروج عليهم والاستخفاف بأنظمتهم وتعليماتهم ، فتحداهم وأفلح فى تحديهم ، وهو يدين مع هذا بمذهب من المذاهب الاشتراكية · !

وكلما استطاع الشيوعيون أعداء الاستعمار والاستغلال كما يقولون ـ أن يخضعوا بلداً غريبا بقوة السلاح · حكموا فيه القمع والارهاب تحكيما لا يستبيحه شر المستعمرين فى القرون الغابرة ولا فى هذا القرن العشرين ، فالبلاد التى دخلها المستعمرون تعانى من عسفهم ما يثيرها عليهم للمقاومة والانتفاض ولكنها على أية حال تقاوم ويسمع لها صوت وتذاع لها فى العالم قضية · أما حيث نزل الروس فلا بقية بعد السيف للمقاومة والانتفاض ، وخطتهم هنالك للمحق والابادة لن تكون أرحم من خطتهم فى صميم بلادهم · أين بلجانين ؟ أين بريا ؟ أين ملنكوف ؟ أين مولوتوف ؟ أين قبل هؤلاء مئات ومئات من الأنداد والنظراء ، وممن تخشى محاسبتهم أو مقاومتهم فى وقت من الأوقات ؟ ان الحاكم الذى يزيل هؤلاء عن طريقه فى وضح النهار لن يترك فى بلاد المغلوبين رأسا يرتفع للحساب والمقاومة ، ولن يدع فيها أحدا يهم بالحركة أو يقدر عليها أن هم بها ·

غول من الوحشية والشيطانية تبتلى به الأمم فى هذا الزمن ولا سلامة لها منه الا بالقضاء عليه ، وتلك هى « تصفية الختام » للمذهب الذى ملك أمة فلم يقدر على حكمها بغير الارهاب والتضليل ، ويريد أن يحكم الأمم جميعا ـ والعياذ بالله ـ على هذا المثال ·

الشيوعية والقومية

كلمة « الشيوعية » ترجمة عربية لمذهب « كارل ماركس » فى حالة التطبيق ، لأنه يزعم أن مذهبه ينتهى الى اباحة كل شىء على الشيوع أو بالمشاع ، ولكنه هو وأتباعه جميعا يسمونه « التفسير المادى للتاريخ » أو «المادية التاريخية» أو «المادية الثنائية» تمييزا له من جميع مذاهب الاجتماع والفلسفة السابقة ، ومنها ما تقدمه من مذاهب اشتراكية يعدونها اشتراكيات أحلام لا تقوم على غير الأمل والخيال ·

وهم جميعا يعتبرون اشتراكيتهم وحدها هى « الاشتراكية العلمية » دون غيرها ، لأنها ـ فيما يدعون ـ تنفرد بمزية لا يساركها فيها غيرها من المذاهب الاشتراكية السابقة ، وهذه المزية المدعاة أنها تقوم على « العلم » وتلتزم « الواقع » ، مع أن « نبوءاتها » أكثر وأبعد تطوحا فى الخيال من جميع نبوءات المذاهب السابقة التى نعت عليها مجافاتها للعلم وتنكبها طريق الواقع · فان « الاشتراكية العلمية » قد تطوحت فى نبوءات لا تنتهى الى آخر الزمان ، كما أدعت لنفسها أنها تفسر أسرار الكون وأسرار المادة فى جميع ظواهرها ، وأنها ترسم للتاريخ المقبل خطاه التى لا يحيد عنها ولا يزال مطردا عليها الى غير نهاية ، وهى نهاية أبعد فى مجـال الغيب من النهاية التى قدرتها الأديان الغابرة ، فهى توغل فى الآبـاد المقبلة ملايين السنين ، وتدعى باسم « العلم » ـ لا باسم الخرافة ـ أن الغيب المجهول لن يتمخض عن شىء فى حياة الانسان غير ما رسمه « كارل ماركس » وفرغ من التنبؤ به قبل منتصف القرن التاسع عشر ، وقبل أن يتقدم العلم خطواته الأولى فى عصرنا الحديث ·

وكانت الأسماء المختلفة التى يطلقها هؤلاء على مذهبهم تسوغ فى بعض الأسماء عند الهتاف بها قبل منتصف القرن التاسع عشر ، لأنهم كانوا يحسبون أن « المادة » شىء ملموس مفهوم غنى عن التفسير ، صالح لتفسير كل شىء بحقائقه ومقاييسه ، ويظنون أن العلم قادر على كل معضلة ، كاشف لكل سر ، بالغ كل حقيقة ، ولهذا أنكروا العاطفة الانسانية والمطالب المثالية كأنها ضلالة مسلمة لا تكون حيثما كانت الا مناقضة للعقل مسترسلة مع الأهواء والأوهام الخادعة ·

فصل نشر فى كتاب « الشيوعية اليوم وغدا » لنخبة من الكتاب والادباء ـ من منشورات مكتبة مصر سنة ١٩٥٩ ·

أما اليوم فقد ظهر أن كل دعاواهم سخف لا يستند اليه صاحب رأى قويم ، ولا يقنع به أحد من الماديين أو المثاليين ، فقد ظهر اليوم أن « المادة » نفسها غير مفسرة وغير مفهومة ، فهى من باب أولى لا تفسر ما عداها ولا تزال سرا يتطلب الفهم ولا يقربنا من فهم غيره • أما « العلم » فقد انكشفت عنه فتنة غروره الأولى ، واضطر كارهـا الى التواضع فى دعواه ، فغـاية ما يدعيه اليوم أنه يصف ويسجل ، وأن مجموعة العلم كله انما هى مجموعة أوصـاف وتسجيلات ، وأن مـا كان يعرفه علماء العصر الذى نشـأت فيه « الاشتراكية العلمية » لا يفسر ظاهرة واحدة من ظواهر زمنه ، فضلا عن تفسير الظواهر الطبيعية والتاريخية والنفسية عامة تامة من مبدأ الخليقة الى آخر الزمان ، أما الزراية بالعاطفة الانسانية فيقابلها فى العصر الحاضر افراط فى التعويل على خفاياها وتخريجاتها ، ودراسة لكل سر بمسبار العاطفة حتى الفلسفة المادية وبواعثها فى نفوس الماديين •

ولقد نقض « العلم » كل دعـاوى الفلسـفة المـادية التى أكدت أنهـا مقررات علمية تنظر الى الوقائع المحسوسة ، ولا تنبىء عن نتيجة من نتائج الأطوار الاجتماعية الا كانت حقيقة من حقائق الرياضة التى لا تقبل الاختلاف بين حاسب وحاسب ولا بين حين وحين • فقد أظهرت الدراسات « العلمية » للمادة أن المادة أخفى من الروح ، كما ظهر من الدراسات العلمية للأطوار الاجتماعية واتجاه تاريخ الأمم فى العصر الحديث أن كل الحقائق المحسوسه التى أنبأ بها كارل ماركس انما هى أباطيل محسوسة لا يختلف فيها ماديان ولا مثاليان •

وأظهرت تجارب الماركسيين فى روسيا نفسها وعلاقتها بغيرها من أمم العالم ، أن مذهبهم غير قابل للتطبيق فى زمن يسير ولا طويل مع ما اعتسفوا من وسائل وارتكبوا من كبائر لفرضه على ضحاياهم هنا وهناك • ولقد اضطروا الى تنقيحه مرات بعـد أن صدمتهم الحقـائق التى اضطروا الى مواجهتها ولم يفلح معها أن يتجاهلوها أو يروها على غير ما هى عليه ، مع ما استباح المجربون والمطبقون والمنقحون جميعا من الجرائم فى سبيل هذه التجارب الخائبة بعد أن هزمتهم الحقائق التى تغشاهم ولا سلطان لهم عليها، لأنها حقائق الكون ونواميس المجتمع • وتوالت خيبتهم وهزيمتهم فيما قبل حقـائق الـكون ونواميس المجتمع • وتوالت خيبتهم وهزيمتهم فيما قبـل التجارب الخائبة بعد أن هزمتهم الحقائق التى تخشاهم ولا سلطان لهم عليها، من فظائع أشـد المتهوسين تعصبا لدين من الأديـان فى سـبيل نشر دينه والخلاص من الكافرين به والمارقين منه • ولم يحص التاريخ من ضحايا الأديان منذ آيام الجهالة الى العصر الحاضر عشر معشار الضحايا الذين ضاعوا بالملايين قتـلا ونفيا وتعذيبا فى سبيل النبوءات الماركسـية • ولم تثبت نبوءة واحدة منها بعد كل هذه التضحيات ، بل يثبت بما لا يقبل الشك أنها مستحيلة التطبيق •

ولم يكن لزاما أن تترك النظريات الشيوعية حتى تنكشف أباطيلها وتندثر كما اندثرت مثيلاتها من النظريات والآراء الباطلة ، فأن المسألة عند كارل ماركس وأتباعه ليست مسألة تقديرات نظرية لا يترتب عليها شيء من العواقب غير تبديل نظرة بأخرى أو تنقيحها برأى يخالفها ، بل المسألة مسألة أرواح ودماء وشعوب واجتراء على الماضى كله بالهدم والابادة ، ايمانا بتلك ودماء وشعوب واجتراء على الماضى كله بالهدم والابادة ، ايمانا بتلك النظرية التى لا تقبل عندهم شكا ، ولا يستكثر على تحقيقها اهدار الدماء كالأنهار ، ولا تقويض المعالم الباقية كأنها من جهود عدو للانسان ، وليست من جهود الانسان فى جميع الأزمان ٠

ولم تكن الانسانية بحاجة الى كل الجهود التى تبذل فى الكشف عن أباطيل الشيوعية وتفند دعاواها من الوجهة العلمية والوجهة التاريخية لولا أنها ــ كغيرها من الدعوات الهدامة ــ ذات اتجاهات تختلط بالغرائز والشهوات وتسرى بين الأغرار والجهلاء ، ولولا ذلك لما تحملت كل هذا العناء فى النقد والتفنيد لانكشاف أباطيلها وعوراتها ومقاتلها لأدنى نظر مستقيم سواء من جانب الشعور أو من جانب الفكر ٠

فأما من جانب الشعور فلا يستسيغ انسان ينطوى على حب الخير أن يميل الى دعوة الشيوعيين حين يدعونه الى تخريب المجتمعات قاطبة بلا مسوغ غير أنه لا يخسر شيئا من وراء خراب عالمه ، وهذه فحوى الدعوى الشيوعية ٠ وقد أظهرت الدراسات العلمية لحركة الشيوعيين منذ قيامها أنها ليست مذهب الطبقة الفقيرة أو المحرومة ، بل هى فى لبابها مذهب طباع وأخلاق يتقبله كل من تلوثت طبائعه بلوثة اللؤم والخسة والأثرة ، وأعفى نفسه من تبعة العمل ومؤونة التكليف ، وغلبت فيه الكراهية والحسد على محبة الخير للناس ، فلا يميل الى الشيوعية محروم برئت نفسه من هذه اللوثة واستقر فى طبعه صدق الايمان بالجد والكفاية ، بل يتقبلها المحروم اذا خامرته مع الحرمان رذيلة الحسد والكسل ، وسولت له الأثرة أن يطمع فى جميع الحقوق ويسقط عن كاهله جميع الفروض والتكاليف ، ومن أصيب بهذه الآفة من ذوى الغنى أو الجاه أو المعرفة فهو شيوعى ولو لم يكن من ضحايا الحرمان ٠

وأما تهافت الشيوعية من جانب الفكر لأدنى نظر مستقيم فلأنه لا يعجز انسان ــ مهما يكن حظه محصورا من العلم ومن استقلال الفكر ــ عن أن يدرك خرافة دعاوى الشيوعية ، التى تسلم انتهاء العلم الى انسان واحد ، وادعاء الاحاطة بأسرار الكون وحقائق التاريخ كلها حتى وصل الى النتيجة التى لا تتغير بعد ولا تتبدل ، وهذه دعوى كارل ماركس لنفسه ، ودعوى اتباعه له ، وهذا ما لم يجترىء على ادعائه أحد قبله ، وهم لا يكتفون بهذه الدعوى

بل يوجبون على الناس جميعا أن يدينوا بها ويعتمدوا عليها ليخربوا عالمهم بأيديهم ، كأن الدعوى معصومة من كل خطأ يدعو الى التردد قبل المجازفة ٠ وأى مجازفة ؟ انها المجازفة بتحطيم العالم كله ماضيه وحاضره ، لا تحطيم جدار ولا بيت ولا مدينة ولا وطن واحد يجمع المدن والبيوت ٠

والأسرة ، والدين ، والقومية أو الوطنية ، فى مقدمة ما يحاربه الشيوعيون ويعملون على تقويضه من أساسه ، مع أن هذه الدعائم الثلاث أقوى من الدعائم التى قام عليها بناء الحضارة الانسانية ، ولو قوضت هذه الدعائم فى نفس انسان لما بقى فيها شىء من آثار الحضارة ، وانتكس الى الهمجية بل الى الوحشية ، فما من فارق بين المتحضر والهمجى أو الوحشى أكبر من الألفة بين الانسان وأهله واخوته وأبناء قومه فى وطنه ، وهى الهداية التى استمدها فى آلاف السنين من شرائع الوطن وآداب الدين ٠

ومع ذلك يدعى الشيوعيون أنهم « تقدميون » ولو كان معنى التقدم أن يقوض الناس كل ما بنته الانسانية فى جميع عصورها الغابرة لوجب أن نلغى ما تعلمناه من صناعاتها فى مآكلنا وملابسنا ومساكننا وآلات المعيشة فى بيوتنا ومجتمعاتنا ، ولكن هؤلاء « التقدميين » من دعاة الهدم لا يجترئون على الدعوة الى هذه الحماقة ، لأن الخراب الذى تؤدى اليه ملموس محسوس لا يقبل الجدل ولا المغالطة ، ويخيل اليهم أن هدم الأسرة والأديان والقوميات أو الوطنيات أهون من هذا الخراب الملموس المحسوس ، مع أنه أسوأ عاقبة من هدم البيوت والتخلى عن كل ما تعلمناه من صناعات الأولين٠

فمن الأسرة دون غيرها تعلم الانسان الألفة وأصول الاجتماع وقواعد الاخلاق وعلاقات التعاون بين العاملين فى البيئة الواحدة ، والى الأسرة يرجع الفضل فى حفظ كثير من الصناعات التى توارثها الأبناء عن الآباء والأجداد ، والى الأسرة يرجع الفضل فى عمل العاملين للمستقبل وسعى الانسان لما بعد حياته ٠

وعيب الأسرة فى رأى دعاة الهدم من الشيوعيين وغيرهم أنها تحرض الآباء والأمهات على توريث البنين والبنات ، وقد يكون فى نظام التوريث عيب أو عيوب صغيرة أو كبيرة لا يستحيل اصلاحها بالقوانين وآداب الاجتماع ٠ أما المستحيل فهو الغاء قوانين الوراثة بين قوانين الطبيعة ، فالأبوان يورثان ولدهما أخلاقه الحميدة والذميمة ، وطباعه وأعضاءه الصحيحة والسقيمة ، وملامحه وسماته الجميلة والقبيحة ، وليس من حق المجتمع أن يحرم انسانا ميراثه من مال والديه ما دام مستحيلا على المجتمع أن يحرمه

ميراثه من ضعفهما وقبحهما وسوء استعدادهما للحياة · ليس من مصلحة المجتمع أن يسوى بين من يعمل لغده ومن يعمل لساعته ، ومن لا يعمل لهذا ولا لهذه ، بل يتواكل ويقنع بالعيش من فضل الآخرين ·

ولولا شهوة الخراب عند دعاة الهدم فى نفوسهم الممسوخة لما تهجموا على نظام الأسرة بتعلات لا تقنع احدا بهدم جحر من جحور الحشرات · على أن التهجم فى دعوتهم الى هدم الأوطان والقوميات أغرب من التهجم على نظام الأسرة ، لأن تدبير العالم بغير أمر يتيسر الى حين ، فأما تدبيره بغير أقوام وأوطان فأمر مستحيل ، ومثله فى الاستحالة تدبيره بغير أديان ·

وقد جاء الامتحان العملى الأول لمزاعم الشيوعية عند أول صدام حربى لروسيا نفسها أيـام الحرب العالمية الثانية ، فان القوامين على السيوعية هناك من الحكام الكافرين بالوطنية والقومية والدين وجدوا أن التبشير بمبادئهم لا يثير فى نفوس الجنود وغيرهم من الروس حمـاسة الى القتـال ودفع الأعداء الذين عصفوا بالبلاد وسكانها ، ووجدوا الهزائم المنكرة تتوالى على المقاتلين الروس على طول خط القتال الذى بلغ مئات الأميال ، فلما ، صدمتهم هذه الحقائق لم يجدوا بدا من طى مبادئهم الشيوعية التى يؤمنون بهـا · ونشر المبادىء التى طالما كفروا بها وحاربوها بأبشع الوسائل ، فنادوا بأن الحرب ليست للدفـاع عن مبادىء الشـيوعية ، بل حرب الغيرة الوطنية والنخوة القومية للدفاع عن حدود الوطن وكرامة الجنس · كما اضطروا الى اطلاق الحرية الدينية للمجاهدين يعتنقون من العقائد ما شاءوا ، فارتفع صوت رجال الدين بعد أن كتموه أكثر من عشرين عـاما · ولم يـكن جيل القيصرية هو الذى الجأهم الى التمسح بالحمية الدينية والوطنية والقومية ، فيعتذر لهم بأنهم يخاطبون جيلا شب وشاب على هذه الحمية ، فلا مندوحة عن اثارتها فى إبان القتال ، بل كان الجيـل الذى يخـاطبونه بهذه الدعوة ليثيروا نخوة الوطنية والقومية والدينية فى معمعة القتال الأول بينهم وبين الألمان جيلا بين العشرين والأربعين · ولم يكن أكبرهم سنا قد جاوز سن الصبا عندما قبض الشيوعيون على مقاليد الحكم فى روسيا سنة ١٩١٧ · وتسعة أعشارهم على الأقل لم يتعلموا حرفا فى غير المدارس الشيوعية · ولم يستمعوا كلمة من غير دعاتها · وليس هنـاك من تفسير لاسـتفزازهم الجنود للقتال بالغيرة الوطنية أو النخوة القومية أو الحماسة الدينية الا أنه افلاس للمذهب المادى فى تكوين المجتمع ، وغرس الأخلاق فى نفوس لم يزاحمه عليها مزاحم من المهد الى مقتبل الشباب ، وكفى بهذا افلاسا للمذهب كله لا فى الأبد الطويل الذى يدعى الماركسيون العلم بخفاياه ، بل فى مدى ربع قرن أو نحوه من حكمهم المطلق وهم يحاولون تطبيق مذهبهم الذى لا يصلح لتطبيق ولو خلت البيئة التى يحاولون تجربته فيها من كل معارضة ·

ولم تكن صدمة الألمان للروس فى الحرب العالمية الثانية أولى الدلائل على خطل المزاعم الماركسية فى تقدير الوطنية والقومية ، ولا أولى الآيات على نفاقهم فى الدعــوة الى هدم الوطنيات والقوميات ، فــان اشــارتهم القيصرية هو الذى الجأهم الى التمسح بالحمية الدينية والوطنية والقومية ، غيرها من الأوطان والأجناس الأخرى لم تهدأ فى وقت من الأوقــات ، وان اختلفت مظاهرها واتجاهاتها وحدتها بين حين وحين ، وبيئة وبيئة ، على حسب المناسبات والأحوال • وهذا النفاق أو الغش فى سياستهم ومداراة أغراضهم أصل من أصول الدعوة الى مذهبهم والتبشير به فى الأوســاط المختلفة • وسياسة روسيا فى علاقتها بالأمم التى يشاء حظها التعس أن تقع تحت سلطان الاستعمار الأحمر ، أدل الآيات على وحشيتها فى القضاء على كل نزعة وطنية وقومية عند غيرهم من الأمم • وهم يسبيحون فى هذا السبيل ما لم تستبحه دولة من دول الاستعمار الذين يندّدون بجناياته على الأمم الضعيفة • فلم ترتكب القيصرية الروسية ، ولا أية دولة ، فى استعمارها الدول الأخرى ، ما ارتكبت روسيا ولا تزال ترتكبه فى استعمارها للدول الخاضعة لها أو الدائرة فى فلكها • وروسيا الشيوعية الآن فى استعمارها الحديث تجمع بين مساوىء الاستعمار القيصرى ومساوىء الاستعمار كما عرفته أوربا فى العصر الحديث ، وتزيد عليها مساوىء لم تخطر لمستعمر على بال ولا جرؤ مستعمر عليها ولو خطرت على باله • ومن الحقائق البارزة التى يجب النظر اليها هنا أن الشيوعية دولة ومذهب ، أو دولة ودعوة • ولا تبرأ سياسة الدولة ذات الدعوة من دسائس النفاق والمراوغة ، فهى اذا كفت عن الدعوة فى الأمم الأخرى خانت مبادئها وتنكرت لرسالتها وتراءت فى ظاهرها بغير ما تضمره فى باطنها • وهى اذا نشرت دعوتها لتشجيع الفتنة بين شعوب الدول الأخرى ، خانت قضية السلام واصطنعت الغش فى قواعد المعاملة الخارجية بينها وبين حلفائها وأعدائها • ولا بد من باطن غير الظاهر فى الحالتين ، ولا بد من فقدان الثقة فى سياسة الداخل والخارج ، وهى أساس كل علاقة صالحة •

وقد تقرر بالتجربة المتطاولة أن « الموقع الجغرافى » يتحكم فى سياسة الدولة فتمضى فى وجهة واحدة وان تغيرت فيها النظم والحكومات ، ويسمون هذا الرأى فى علم السياسة الحديث « الجيوبولتيك » أو السياسة الجغرافية. ويصدق هذا الرأى على وجهة السياسة الروسية من عهد قياصرة رومانوف فى روسيا الى عهد قياصرة الشيوعيين • فكل ما طمع فيه آل رومانوف من الفتوح أو مناطق النفوذ فهو مطمع للساسة الشيوعيين على اختلاف التعلات السياسية بين أولئك وهؤلاء • فقد كان آل رومانوف يقولون أنهم يريدون فتح الآستانة لاستعادة كنيسة « أيا صوفيا » واقصاء آل عثمان عن عاصمة الكنيسة الشرقية القديمة • فانقضى آل عثمان وآل رومانوف ، وقام بالأمر

فى الآستانة وموسكو أناس ينظرون الى الدين بغير نظرة القياصرة الروسيين والخلفاء العثمانيين · ولكن سادة الكرملين يطلبون الآستانة ، ويطلبون البسفور والدردنيل ، كما كان يطلبها قياصرة الحرب وقيصر السلام · وهذا يدل على أن سياسة الأمس وسياسة اليوم فى الدولة الروسية على اتفاق فى الوجهة العامة · وتزيد سياسة اليوم بالدعوة الى مذهب الدولة والاتجاه بها الى اشاعة القلق والخراب فى كل مكان ولا سيما بلاد المشرق التى يتطلع اليها « الرفقاء الحمر » كما تطلع اليها من قبلهم أصحاب التيجان ، ويتوسلون لبلوغ مطلبهم بشر ما توسل اليه أولئك القياصرة ·

واذا كان فى العدوان الدولى ما هو شر من طمع الاستعمار ، فذلك هو العدوان الذى يستوفى الطمع ويزيد عليه سعاية السوء لاشاعة النقمة واشاعة البغضاء بين الأفراد والهيئات والأمم ، فلا يزال ، بكيد الساسة والدعاة ، يلبى مطالب الدولة بالطمع ، ويزيد على ذلك تلبية الدعوة باشاعة النقمة والخراب · ويدل « الموقع الجغرافى » أيضا على طبيعة الشيوعية فى عملها بالقوة وعملها بالاقناع · فمما يدل على أن عملها بالقوة أكبر من عملها بالاقناع ، أن « سلطتها » أنجح ما تكون فى البلاد التى تصل اليها بالسلاح والمال أو معونة المرافق المالية · فان سلطتها فى الهند أضعف من سلطتها فى الصين وكوريا الشمالية ، وسلطتها فى هاتين أضعف من سلطتها فى البلاد الآسيوية الاسلامية التى تجاورها · ولا توجد أسباب غير أسباب السلاح والمال تجعل الشعوب المتساوية فى الثقافة وطبقة المعيشة متفاوتة الأثر بالنسبة اليها ، كما تتفاوت اسبانيا وبلاد البلقان ، أو كما تتفاوت أمريكا الجنوبية وآسيا الوسطى ، أو كما تتفاوت جميع البلاد المجاورة لمصادر القوة الروسية وجميع البلاد البعيدة عن جوارها ·

ولأكثر من سبب واحد كانت الشعوب الاسلامية فى آسيا الوسطى أوفر من سواها قسمة من وطأة الدولة والدعوة معا فى آونة واحدة ، فهنا يعمل الجوار الجغرافى والجوار التاريخى عملين متساويين فى تعجيل الاخضاع ونشر المذهب والسلطة بكل ما تملكه الدولة والدعوة من قوة وتأثير ، فان قسمة البلاد الآسيوية الاسلامية من « عناية » الشيوعية تزداد بازدياد العداوة المتأصلة بين أجناس المغول والسلاف ، وازدياد وقائع الفتح والاستعمار من أقدم عهود القياصرة · وليس مما يضعفها على الزمن اشتداد المقاومة التى يلقاها المستعمرون عامتهم من أتباع الديانة الاسلامية ، ولا مما يضعفها فى الزمن الحديث بخاصة أن الاسلام دين يشتمل على نظام اجتماعى وفكرة خلقية تنافس الفلسفة المادية فى كل معرض من معارض المعيشة ومقاييس الأخلاق ·

وموقف روسيا الشيوعية من القومية الطورانية التركية فى القارة

الآسيوية مثل واحد يدل على موقفها من القوميات ، وعلى وسائلها فى حربها لاجتثاثها من أصولها ، ففى هذه القارة بضع عشرة أمة صغيرة يتراوح عددها بين مليون وخمسة عشر مليونا أو نحو ذلك ، وكلهم فى الأصل ترك طورانيون يدينون بالاسلام على المذهب السنى ، ويتكلمون لهجات من اللغة التركية يفهمونها جميعا بكتابة واحدة ، ولا يصعب على أحدهم أن يتفاهم بها مع أبناء الأقاليم الأخرى ، ولا شك أنها تتوحد كما توحدت الفرنسية أو الايطالية بين لهجات الأقاليم في بلادها اذا استخدمت فى الكتابة والاحاديث العامة كما تستخدم اللغات القومية ·

ولكن القيصرية الشيوعية – باسم رعاية الحقوق واحترام الاستقلال الذاتى لتلك الشعوب – تمزقها فى حدودها وأنظمة حكمها أجزاء مبعثرة لا يجتمع جار منها على جار ، ولا يقبل من أحدها أن يذكر له أصلا جامعا ينتمون اليه باللغة والسلالة · والعمل على محو معالم القومية فى هذه الشعوب وقطع كل علاقة بينها وبين تراث اللغة والتاريخ فيها ، هو زبدة المبادىء التى تعلنها قرارات الحزب الشيوعى ، وتذيعها الصحف الرسمية ، ويشرحها فى الكتب والنشرات علماؤها المجندون لتنفيذ برامجها الثقافية · وما من كتاب يؤذن له بالخروج من المطبعة فى أرجاء روسيا الا وهو بمثابة الأمر الحكومى المفروغ من تحضيره ومراجعته وتطبيقه على مشروعات السنوات كما تقررها نظم الدولة ، بعد أن تفرض العقوبة الصارمة على من يخالفها ·

ولقد سلك « المستعمرون الحمر » مسلك جميع المستعمرين فى تخدير ضحاياهم بالوعود الكاذبة وتغريرهم بزخارف الأباطيل ومحرجات الايمان على نية الحنث بها من اللحظة الأولى ، فأعلنوا فى أوائل أيام الانقلاب الشيوعى بلاغا طنانا وجهوا فيه الخطاب الى الشعوب الآسيوية الاسلامية بصفة خاصة . وأكد ما فيه لكل شعب منها أنه آمن بعد اليوم على حريته التامة فى معتقداته وشعائره وعاداته ومقومات اللغة والعرف بين عشيرته وأهله ، وآذنوه بزوال الحكم القيصرى ، وزوال الحجر والطغيان بزواله الى غير رجعة · وما هو الا أن هدأت الثائرة واستقرت الدولة الجديدة فى مراكزها حتى عادت القيصرية فى أشنع صورها ، وحل الخوف محل الأمان فى كل وعد من وعود الحرية والطمأنينة . وقال قائل من أبناء تلك الشعوب المهاجرين فى حديث يمتزج بالسخر الأليم « ان المخدوعين المساكين كانوا اذا أرادوا أن يعرفوا مواضع المصادرة المنتظرة رجعوا الى بقية الشعائر التى وعدوهم باحترامها ، فعرفوا أنها هى الهدف المقصود بالضربة التالية · ولم يكن هذا الساخر مازحا فيما وصفه من تقدير قومه وان ساقه فى مساق التهكم والسخرية ، فان الشعائر المقدسة قد أصبحت فى الواقع مرادفة للجرائم المحرمة على تلك الشعوب فى نظر حكومة روسيا الشيوعية ، حتى

الشكوى من القيصرية فى ابان طغيانها أصبحت دليلا على التشبث بالنعرة القومية ، فوجب اتهام المجاهرين بها والقضاء على دعاتها • وتساوى فى هذا الاضطهاد جميع الشعوب الاسلامية : من كان منهم فى أقاليم أوربية • ومن كان منهم فى أقاليم آسيا الغربية أو آسيا الوسطى • فصدر الأمر فى «القرم» بتقسيم اللغة التى يتكلمها « القرميون » الى ثلاث لهجات ، وضبط كتابتها على حسب الابجدية الروسية لا على حسب الابجدية العربية ، ونادى وزير المعارف ــ الكسندرفتش ــ فى المؤتمر الشيوعى السابع عشر بوجوب تطهير هذه اللهجات وادخال الكلمات الروسية فى مواضع الكلمات المحذوفة منها . وشاعت سياسة التشتيت والتمزيق فى اللهجات ، بل فى فروع اللهجات ، ليتيسر محوها وتصعيب استخدامها فى مقاصد العلم والثقافة وتعجيزها ــ من ثم ــ عن الثبات أمام اللغة الروسية التى اجترفتها جميعا فى معاهد الدراسة ودواوين الحكومة ومنشورات المصالح والمجالس السياسية • وقد كان ستون مليونا من أبناء الشعوب الآسيوية يقرأون صحيفة « ترجمان » التى كان يصدرها المصلح الكبير « اسماعيل غصبرالى » المعروف فى القاهرة، وكانوا على اختلاف لهجاتهم يفهمونها ويتداولونها ــ فأمر المستعمرون الحمر ــ أنصار حرب الشعوب ــ بمصادرة كل صحيفة من قبيلها ، واعتبارها داعية الى النكسة والرجعية والتشبث بالنعرة الوطنية والحمية القومية ، وصادروا ــ مع مصادراتها ــ كل سيرة من سير البطولة يتغنى بها أبناء الشعوب والأقوام المغلوبة ، لأن ثورة الأبطال القوميين والوطنيين فى وجه القياصرة انما كانت ثورة على « الأمة الروسية » التى ساقت الحضارة والمعرفة الى تلك الشعوب •••

وحاقت اللعنة بالأدباء الذين يذكرون أوطانهم وأقوامهم بالثناء ويفخرون بالانتماء اليهم ، فأتهم الشاعر التركمانى « جمعه مرادوف » بالنكسة الرجعية ، لأنه نظم قصيدة عنونها « بلدى تركمانستان » عابتها صحيفة الحزب «تركمانسكايا أسكرا» فى عددها الصادر فى ١٩٥١/٩/٢١، وقالت فى انتقاد الشاعر : « انه لا يختص التركستان السوفيتية بالكلام ، بل يعمم القول على جميع بلاد التركمان ، ويصورها كأنها جنة على الأرض •• وانما ينبغى من الشاعر أن يتحدث عن تركستان الصينية لأنها احدى الجمهوريات الأخوات فى داخل الاتحاد السوفيتى العظيم » •

وسبقت الأمم غير الروسية فى عقد مؤتمر تعلن فيه ولاءها للدولة المستعمرة « روسيا » وسخطها على دعاة التجديد والاحياء فى الحركة الوطنية ، فخطب باجيروف ــ نائب الرئيس بذلك المؤتمر ــ قائلا « ان رئاسة اتحاد الكتاب السوفيتيين رأت حوالى سنة ١٩٤٨ أن تعقد فى موسكو اجتماعا لتنظيم المناقشة فى مسألة « القومية » التى ينتمى اليها الكتاب السابقون

ومؤلفاتهم ، غير مستثنية من ذلك الكتاب الرجعى الذى ينطوى على عداوة « الشعب » وتسميم الأفكار بسموم « الجامعة الاسلامية » ، وهو كتاب « ديد كركوت Deda Korkyt » ، ولكن هذا الرأى قد تكرر رفضه فى لجنة الحزب المركزية . وعرفنا بفضل هذه اللجنة طوايا الكتاب السيئة ، وأن نميط اللثام عن حقيقة الرجعية » .

وتعقب النقاد الرسميون أناشيد البطولة القومية والوطنية فى الأمم الخاضعة للمستعمرين الحمر ، فوصموها بخبث النزعة وسوء الطوية ، وقال « باجيروف » — المتقدم ذكره — فى عدد يوليو سنة ١٩٥٠ من مجلة « بولشفيك » وهو يتحدث عن « شامل » بطل القوقاز الذى اشتهر بثورته على القيصر قبيل منتصف القرن التاسع عشر : « اننا اذا أردنا أن نفهم فكرة صحيحة عن حركة « شامل » فلنذكر أنها كانت حركة دينية ، وأنها أشد أعراض « الجامعة الاسلامية » نكسة وعداوة » .

وقالت مجلة « كومونست » فى عدد يناير سنة ١٩٤٣ : « ان المؤلف « جعفروف » الذى كان يظن سنة ١٩٤٤ أن الحركات القومية التى ثارت على روسيا خلال سنة ١٨٩٨ وسنة ١٩١٦ ، كانت من حركات التحرر الوطنى القومى — قد عاد فأدرك خطأه ، وكتب فى سنة ١٩٥٢ أنها كانت حركات « اقطاعية متعصبة » . ثم قالت : « ان هذا الكتاب — كتاب جعفروف — يتعمق فى البحث عن جذور العلاقة الودية بين أمم آسيا الوسطى والأمة الروسية العظمية ، ويلفت النظر على نحو خاص الى الدلالة التقدمية التى يدل عليها ضم هذه الأمم الى الحظيرة الروسية ... فان هذا الضم قد أتاح لها فرصة المساهمة فى ثقافة روسيا العظيمة » .

وبرافدا — صحيفة الدولة — تردد هذه الأقوال وأمثالها : ففى ١٠/٧ سنة ١٩٥٢ تصرح أن اللجنة المركزية للحزب الشيوعى تمنع سموم الجامعة الاسلامية ... وفى ١٩٥٣/١٠/١٢ تصرح : أن المؤلف « سليمانوف » مضلل كاذب ، لأنه يزعم أن الشعوب التركية تجمعها ثقافة مشتركة .

و « أزفستيا » — وهى الصحيفة الأخرى للدولة — تصرح قبل ذلك فى ١٩٥١/٩/٢ ببطلان الدعوة التى يجنح اليها مجمع العلوم ببلاد « الأزبك » لاحياء كتب السلف الاسلامية وادخار مخطوطاتها ومتفرقاتها .

وليست حرب الشيوعية الروسية للقوميات والوطنيات فى غير روسيا، وتعزيزها للقومية والوطنية فى داخل روسيا بدعة على القياصرة الحمر ، فلقد بدأت هذه السياسة منذ أفاقوا من شواغل حربهم الداخلية ، ولكنهم

كانوا يراوغون فى تنفيذها بين المصانعة والخديعة ، أو بين القمع والحيلة ، حتى كشفوا القناع عنها حوالى سنة ١٩٣٠ ، فدفعوا أذنابهم الى المؤتمر الذى سموه « المؤتمر التاريخى » فى « سمرقند » ليعلنوا البراءة من الوحدة « القومية » ··· أو ليعلنوا بعبارة أخرى أنهم ــ أبناء آسـيا الوسـطى ــ أشتات متفرقون ، وليسوا بالعنصر الواحد فى الأصل ولا فى فى اللغة ولا فى التراث القديم · وقد اجتمع المؤتمر سنة ١٩٣٥ ، وأصدر قراره ــ العلمى أيضا ــ بوجوب تصحيح النظر الى تلك الوحدة « القومية » المزعومة بين القازان والتركمان والقرغيز والأزابكة وجيرانهم الآخرين ···

ولسنا ندرى كيف يطمع دعاة الاستعمار الأحمر فى تصديق هـذه الأضحوكة عن اناس طائعين مختارين يشدون رحالهم الى بلد واحد ليسوغوا للغاصب تمزيقهم وانكار أصولهم وابتلاعهم بعد ذلك أشتاتا متفرقين ·

وقد كان تصديق هذه الأضحوكة جائزا لو كانت المسألة هنا مسألة مبدأ فى المذهب الماركسى يطبقونه على جميع الأوطان وبين جميع الشعوب والأقـوام ··· أو لو كان الشـعور الوطنى أو القومى ــ على مذهبهـم ــ شعورا بغيضا لديهم يحرمونه على الأمم الحاكمة كما يحرمونه على الأمم المحكومة ، ولكن الواقع فى الامبراطورية الروسية الحمراء على نقيض ذلك من طرفيه ، فان العصبية الوطنية مفروضة مشكورة فى روسيا ، على حين هى مذمومة مدحورة فى البلاد الخاضعة لسلطانها ، وكلما اشتد ولاة الأمر فى تحريم العناية باللغة والتراث القومى فى قطر من الأقطار الآسيوية ، قابلوا ذلك بالحماسة الروسية للعنصر واللغة والثقافة فى أضيق حدودها · ولم يصنع النازيون والفاشيون فى تهوسهم المرذول بالمفاخر المحتكرة للجنس الآرى ، والمآثر الموقوفة على الجرمان وأسلافهم دون سواهم من أمم العالم ، بعض ما صنعه دعاة العظمة « السلافية » ، بل عظمة « الجنس الروسى » على حدة بين سائر أجناس السلاف الحاضرين والغابرين ، فانهم ردوا الى هذا الجنس فضلا واحدا لا منازع لهم فيه ، يدعون به السبق الى كل اختراع ، والانفراد بكل فكرة قبل انتشارها بين بلاد الحضارة الحديثة ·

ففى سنة ١٩٤٠ منح مجلس الوزراء جائزة الدولة للمؤرخ « ريباكوف Reybecov » لأنه زعم فى كتابه عن صناعات روسيا القديمة : أن روسيا كانت مصدر المعارف الصناعية التى انتقلت منها الى الغرب واستفادت منها بولونيه وبوهيميه وما جاورهما · وصحيفة الدولة تحيى قصة كاترين الثانية فى الصور المتحركة ، فتعيد قصيدة شاعرها الذى وصف ذلك العهد بأنه عهد الظفر القاصف والغلبة الجائحة والعبقرية الروسية فى ميدان القتال · وقادة روسيا الذين خدموا القياصرة تعاد ذكرهم المئوية أو الخمسينية لكل

مناسبة عارضة أو لغير مناسبة على الاطلاق غير أرقام التواريخ : ففى شهر مايو سنة ١٩٥٠ يشيد كاتبهم بذكرى انقضاء ثمانية وخمسين سنة على وفاة القائد « شفيروف Suverov » ، ويحيى هذه الذكرى بمقال مسهب استغرق أكثر من عشر صفحات فى العدد التاسع من مجلة « بولشفيك » و « الدولة » هى التى تتولى نشر كتاب « كوفاليف Kovalev » الذى يرد معظم المخترعات الى سابقة روسية ، ويقول فيه : ان « لومنسوف » الروسى سبق لافوازيه الفرنسى الى قانون المادة والطاقة ، وان « بتروف » الروسى سبق سائر العلماء العالميين فى كشوف الصناعة الكهربية ، وان « ليتز » و « ياكوبى » الروسيين سبقا سائر المخترعين والكاشفين الى استطلاع أسرار المغناطيسية الكهربية ، وان « بلزنوف » الروسى سبق « واطسن » الى اختراع القاطرات البخارية ، وان « يابلخوف » و « لوديجين » الروسيين سبقا سائر المخترعين الى الاهتداء لنور الكهرباء بأكثر من ثلاثين سنة ، وان « بوبوف » الروسى هو مخترع جهاز الاذاعة حوالى سنة ١٨٩٥ ، وان « برويجين » الروسى سبق الفلكيين الى رصد حركات المذنبات ، وان « لوباشفسكى » الروسى هو صاحب الآراء الحديثة التى جدد بها علوم الرياضة وأنشأ بها هندسة تنافس هندسة اقليدس القديمة ، وان علماء الروس بالايجاز قد سبقوا سائر العلماء والمخترعين فى ميادين الصناعة العصرية والعلم الحديث ٠

وكلما اجتمع مؤتمر المعلمين الذى يوحى بسياسة التعليم الى المدارس عامة فى أنحاء الامبراطورية الروسية ، نادى بوجوب تعليم الدروس باللغة الروسية ٠ وصحيفتهم المخصصة لاذاعة هذه السياسة هى التى نشرت خلاصة القرارات فى ١٩٥٤/٤/٧ . فقالت فى الفصل الافتتاحى « ان الاكرانيين وأبناء روسيا البيضاء واللاتفيين والأستونيين والقازان والأزابكة والشراكسة والأرمن والتتر ٠٠٠ يدرسون بجد وشغف لغة أختهم الكبرى : الأمة الروسية العظيمة ، وهذه الصحيفة هى التى نشرت فى ١٩٤٢/٦/٣٠ برنامج التعليم فقالت : انه من اللازم فى السنوات الباكرة أن يتعلم الأطفال محبة كل ما هو وطنى من تربة الوطن ٠٠ وأن تغرس فى نفوسهم الفكرة التى تجلب دموع الفرح الى عيونهم عند الاشارة الى هذه الأمم الكبرى ، وتسرى بالقشعريرة الى الدم كلما مر بالذهن خاطر يهددنا بفقدها » ٠

وما قيل عن محاربة القومية والوطنية فى شعوب آسيا الصغرى يقال مثله فى علاقة روسيا الاستعمارية الحمراء بالبلاد الخاضعة لها ، سواء منها البلاد المستقلة صاحبة السيادة التى تسمى الملحقات أو الكواكب التى تدور فى فلك الدولة « Satellites » ، والبلاد الداخلة فى اتحاد الجمهوريات الشيوعية على درجات من الحكم الذاتى وحرية التصرف فى العلاقات الخارجية ، فكلها لا تعرف لها « شخصية قومية » بمعزل عن سياسة روسيا

فى وجهتها العامة ، وحسبنا من ذلك ما كشفته ثورة بولونيا وثورة المجر ضد الاستعمار الأحمر الذى تفرضه القيصرية الحديثة على أمم الملحقات المستقلة ، وبولونيا والمجر أوفرها نصيبا من الاستقلال فى عرف السياسة الدولية • وليست روسيا الشيوعية أقل طمعا فى البلاد العربية ، ولا أرأف بها مسا من البلاد التى تخضع لطغيانها ، وهى لا تدخر للقومية العربية من المحن دون ما تدخره لغيرها من القوميات فى الأمم التى حاقت بهـا لعنة الاستعمار الأحمر ، ولا سيما البلاد التى تدين بالاسلام •

فالمستعمرون منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث لم يعملوا ، ولا حاولوا أن يعملوا ، ما عمله ويستعد لعمله الاستعمار الأحمر فى محاربة الحركات القومية فى غير روسيا لابتداع السلالات وهضمها فى سياسة واحدة تحيط بالأمم المغلوبة وتخرجها عن أصولها وتقتلعها من جذورها وتسوقها الى عقد المؤتمرات ووضع برامج التدريس لهجر لغاتها ودفن تراثها والتنكر لماضيها ومستقبلها ، فغاية ما ترامى اليه أمل المستعمرين من غير الشيوعيين فى محو معالم القومية بين الشعوب الخاضعة لهم ، أنهم كانوا يجعلونها بالمنزلة الثانية فيما يتعلق بالحكم وولاية الأمور العامة • فأما هذه السياسة التى تجعل القومية جريمة ومفخرة فى وقت واحد ، وتفرض على المغلوب أن يتغنى بمفاخر سادته ، ويزرى بمفـاخر قومه ، فتـلك خـاصة من خواص القيصرية الشيوعية الحمراء لم يسبقها سابق فى تاريخ الاستعمار •

فالمبادىء التى يروجوها سماسرة الاسـتعمار الأحمـر عن الوطنية البغيضة والعنصرية والبرجوازية وأشباه هذه المحفوظات المتكررة المبتذلة ، انما هى بضاعة تصدير لمحو جميع العناصر والقوميات ، وبقاء عنصر واحد هو العنصر الروسى ، يسودها ويرغمها على التغنى بمفاخرة والاشمئزاز من مفاخرها • وهذه سياسة عنصرية لم تبلغ مبلغها سياسة مرسومة لمستعمر قديم ولا حديث •

ان الشيوعية لا تقبل التوسط على سلام بينها وبين غيرها من المذاهب والاديان ، وأصح ما يكون ذلك فى العلاقة بين الشيوعية والاسلام ، فـلا بقاء للشيوعية فى بلاد تدين بالاسلام وفى مقدمتها البلاد العربية ، ولا بقاء للاسلام فى بلاد تدين بالشيوعية ، وكل سياسة تقـوم على دعـوة السـلام والوفاق بين الشيوعية وأصحاب العقائد المخالفة لها فهى دعوة قائمة على نفاق ، وعلى تربص كالتربص بين الأعداء المتسترين • فان قيام الشيوعية على هدم القومية والدين وغيرها من دعائم الاجتماع فى المجتمعات التى تخالفها ، وايمـان الشيوعية بأن الخير كل الخير فى تفكيك أوصـال هذه المجتمعات وتعجيل زوالها ـ هما حقيقتـان لا تقبـلان المغـالطة ، ولا يكون المتجاهل لهما الا مغرضا من البداءة ، وهو يدارى الغرض متشيعا جـدا لتشيع تحت سربال العدل والمساواة •

فيها ما يصاب •

واذا قال الشيوعى انه يؤمن بالتعايش السلمي ، فمعنى ذلك انه يكف عن تنفيذ مذهبه ، أو أنه يرتاب فى صدقه ، ولا يؤمن ضربة لازب بانهدام القوميات والديانات وغيرها من دعائم المجتمعات العالمية فى وقت قريب . ولا أمل له فى نجاح الدعوة من قبله ما لم يكن قد عدل حقا عن الكيد لمن يعايشهم « تعايشا سلميا » ويتربص بهم تربص الوارث بمن يترقب موته ، وما هذا بأساس صالح « للتعــايش الســلمى » بين الشيوعية وغيرها من العقائد والمذاهب ، ولا بين روسيا الحمراء والأمم الأخرى بقومياتها المخالفة لها ، بل هذا هو أساس المعاملة بين من يعيش ومن يموت ، أو بين الوارث والموروث المطموع فيه .

ستالين فى رأى خلفائه

لما ألقى الرفيق « خروشيشيف » – فى مؤتمر الحزب الشيوعى – خطابه عن سياسة ستالين تسربت شذرات منه الى العالم الخارجى وأذاعتها الصحف بين التصديق والتكذيب ، وكان الرأى الغالب أنها نقل محرف ان لم تكن حديثا مسموعا من مصدر غير وثيق ، فاشتد اهتمام الصحف باستقصاء الحقيقة ومضت أيام قبل التحقق من صحة الخطاب وقبل الحصول على نصه الكامل من المصادر الأجنبية ثم من المصادر الروسية ، وكان حكم الناس على هذا الخطاب بعد التيقن من صحته وصحة مصدره أنه وثيقة لا نظير لها فيما أذيع حتى الآن من وثائق القرن العشرين •

ومهما يكن من نقص فى الاطلاع على حوادث العالم فلا نحسب أن أحدا يعزو هذا الاهتمام بالوثيقة الى صدورها من زعيم معدود فى دولة كبيرة ، فاننا فى عصر كثرت فيه خطب الزعماء المعدودين فى جميع الأمم وفى شتى الموضوعات ، ولا نحسب أن احدا يعزوه الى غرابة الفظائع التى رويت فى الخطاب عن ستالين • فان الناس قد ألفوا من هذه الفظائع كل غريب غير مألوف فى العالم أو فى بلاد الروس : ألفوا منها أن يكون ضحايا ستالين من أقطاب الحزب الشيوعى أكثر عددا من ضحايا هذا الحزب وضحايا دعاة الثورة على اختلاف مذاهبهم فى عهود القياصرة مجتمعين ، وبعد هذه الغرابة لا محل لاستغراب شىء من « الرفيق » الذى يصير الرفقاء على يديه الى هذا المصير •

أما فظائع العصور الغابرة فما من فظيعة فيها تبلغ من الغرابة شيئا من غرابة الفظائع التى اقترفها ستالين فى العصر الحديث • فقد كانت فظائعهم فيما مضى ديدنا لا يستغرب وشريعة يتبادلها من يصيب ومن يصاب، وقد أصبح تكرار هذه الفظائع خبرا مفروغا منه – لا يستطيع – الرفيق خروشيشيف أن يطالعهم منه بجديد •

لقد علم الناس أن « نيرون » فظيع ، ولكنهم علموا أنه مجنون يحاسب بحساب المجانين •

مقدمة لترجمة نص خطاب « خروشيشيف » السكرتير العام للحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى فى المؤتمر العشرين الذى عقده الحزب • وقد استغرق الخطاب جلستين كاملتين يومى ٢٤ ، ٢٥ فبراير سنة ١٩٥٦ – (من منشورات مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة سنة ١٩٦٠ •

وقد علموا أن « أتيلا » فظيع ، ولكنهم علموا أنه يسوم اعداءه ما يسومونه لو وقع فى أيديهم ، فهو فظيع لا يوصف بالغرابة فى زمانه على الأقل ، ولم يبلغ عدد صرعاه مع ذلك معشار الملايين الذين ذاقوا الموت والسجن والتعذيب على أيدى « الرفيق » الذى تكلم عنه رفيقه خروشيشيف وسبقه فى الكلام عنه من شرحوا هذه الغرائب أو زادوا عليها فأصبحت فى حكم المألوفات ٠

كلا ٠ لم يوصف خطاب خروشيشيف بأنه وثيقة القرن العشرين لأنه طالع الناس بغريبة من غرائب ستالين ٠٠٠

ولا وصف بذلك لأنه صدر من زعيم معدود فى دولة كبيرة ، ولكن صدوره من « خروشيشيف » مع هذا كان سببا من أسباب هذه الصفة وهذا الاهتمام وهذا الاستغراب الذى شكك الناس زمنا فى صدق الخبر وفى امكان صدور الخطاب من قائله المنسوب اليه ٠

لو كان خروشيشيف خليفة لستالين وحسب لما استغرب الناس ما قاله عن سلفه وان أقذع فيه غاية الاقذاع ، لأن الخلفاء الذين يتهمون أسلافهم غير قليلين فى التاريخ الحديث ولا فى التاريخ القديم ٠ ولو كان وريثا لعرش القياصره كالملوك الذين يرثون العروش عن آبائهم لجاز أن يسمع الناس منه أنه سيعدل حيث ظلم أبوه وأنه لن يصنع كيت وكيت مما ينكره الناس على الحاكمين من قبله ٠ ولكن « خروشيشيف » خليفة ستالين لأنه تلميذ من تلاميذه ، وعون من أعوانه ، ويد من أيديه فى أعمال حزبه وأعمال حكومته ، وشريك له فى مذهب يقوم كله على فكرة واحدة : وهى بطلان النظم التى تتغير فيها السياسة بتغير الأشخاص ٠

هذا هو موضع الدهشة من حملة خروشيشيف على استاذه ورئيسه بعد انقضاء سنوات ثلاث على وفاته ٠

وهم لم يدهشهم من الحملة أن « خروشيشيف » يدين نفسه ، أو يتعرض لاتهامه فى وفاته لاستاذه ورئيسه ٠ فان الكلمة هنا ليست بكلمة « خروشيشيف » وحده فى الدولة الروسية ، ولو كانت كلمته وحده لما استطاع أن يقولها ولما كانت به من حاجة الى قولها وتسجيلها على نفسه مع بقائه فى مكانه وعمله ٠ انما تكلم خروشيشيف هنا بلسانه ولسان زملائه وشركائه فى خلافة ستالين ، وليس موضع النظر فى موقفه أنه قصة وفاء يحافظ عليه هذا أو لا يحافظ عليه ذاك ٠ اذ هم جميعا سواء فى اتهام ستالين وفى الاعتراف على أنفسهم بطاعته مجبرين غير مقتدرين على مقاومته ولا على مواجهته بخلاف فى الرأى من أكبر الأمور الى أصغر الامور ٠

كيف استطاع ستالين أن يستبد هذا الاستبداد فى مجتمع زالت منه رؤوس الأموال ؟

كيف استطاع أن يجمع فى يديه سلطانا لم يستطعه قيصر ولا شاهنشاه ولا حاكم بأمره من طغاة القرون الأولى ٠

أبدهائه « الشخصى » يستطاع هذا فى بلد زالت منه رؤوس الأموال ؟

أبالنفوذ السياسى يستطاع هذا فى ظل مذهب يقال فيه أن النفـوذ السياسى كله تبع للمنافع الاقتصادية ؟ وان السياسة وحدها لا توصل الى شىء من النفوذ حيث يكون رأس المال أو حيث لا يكون ؟

واذا كانت المنافع الاقتصادية تتيح لفرد واحد أن يستبد هذا الاستبداد على الرغم من أنوف الأقطاب والأنداد فى بلاده فماذا تبلغ العيـوب التى تثيرنا من رأس المال الى جانب هذا الشر المستطير الذى يهون عنده كل ما فى رأس المال من الشرور ؟

★★★

لقد استطاع سـتالين أن يسـتبد بالرأى وأن يضرب بأقوال القواد والسفراء والخبراء عرض الحائط فى خطب من أعظم الخطوب التى تهدد سلامة بلاده وهو خطب الغزوة الألمانية ، لأنه اعتقد أن الأخبار التى تصل اليه من الخارج عن قرب الشروع فى هذه الغزوة ملفقة لاستدراجه الى الحرب ، ولم يكلف نفسه عناء المراجعة لتصحيح هذا الاعتقاد اكتفـاء بتقديره أو تخمينه الذى لا يخيب فى ظنه ، وأصر على تكذيب النذر المتوالية بابتداء الغزوة الى ما بعد ابتدائها واقتحام الجيوش الألمانية للحدود الروسية ٠ وقد استطاع فى الشئون الداخلية أن يسـتبد فيها استبدادا أشـد من هذا الاستبداد ، لانه قتل نحو سبعين فى المائة من أعضاء لجنة الحزب المركزية التى يتولى باسمها مركزه فى الحزب وفى الحكومة ٠

ومن كلام خروشيشيف عن عناد ستالين فى أمر الغزوة الألمانية بعد سرد النذر التى توالت عليه من الخارج والداخل قوله فى خطابه كما جاء فى ترجمتـه العـربية : « وكتب كوربونوس الذى كان قـائدا لمنطقة كييف العسكرية ــ وقد قتل فيما بعد أثناء وجوده بالجبهة ــ الى ستالين يقول ان الجيوش الألمانية وصلت الى نهر باج وأنها تتهيأ لشن الهجوم وأنه من المحتمل أن تقوم بهذا الهجوم فى القريب العاجل ، وقد أقترح كوربونوس فى هذا المقام تنظيم دفاع قوى ٠٠٠ ولكن موسكو أجابت على هذه الاقتراحات بأن

تنفيذها يعتبر استفزازا وأنه ينبغى عدم الاقدام على اتخاذ أية استعدادات دفاعية على الحدود ، حتى لا تتيح للألمان فرصة التذرع بأى سبب للقيام بعمل عسكرى ضدنا ٠٠٠ »

الى أن قال « وعندما غزت جيوش الفاشية الأراضى السوفيتية وعلا وبدأت العمليات الحربية أصدرت موسكو أمرا بعدم الرد على النيران الألمانية ٠٠ فى عشية غزو الجيش الهتلرى للاتحاد السوفيتى عبر مواطن ألمانى حدودنا وأبلغنا أن الجيوش الألمانية تلقت أمرا بالبدء فى الهجوم على الاتحاد السوفيتى فى الساعة الثالثة من صباح يوم ٢٢ يونيو وأبلغ ذلك الى ستالين فورا ولكنه تجاهل أيضا هذا التحذير » ٠

أما طغيانه فى الشئون الداخلية ففى الخطاب كلام مسهب عنه يطلع عليه القارىء فى مكانه من الترجمة ، وخلاصته كما جاء فى الخطاب « أنه من بين المائة والتسعة والثلاثين الذين انتخبوا فى المؤتمر السابع عشر ثمانية وتسعون اعتقلوا وأعدموا رميا بالرصاص خلال عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ على الخصوص ٠٠٠ ولم يكن هذا مصير أعضاء اللجنة المركزية فحسب ولكنه كان مصير غالبية المندوبين الذين اشتركوا فى المؤتمر السابع عشر ٠

فمن ١٩٦٦ مندوبا كانوا يملكون حق الاشتراك فى الاقتراع أو يتمتعون بحقوق استشارية ألقى القبض على ١١٠٨ أشخاص بتهمة ارتكاب جرائم مناهضة للثورة ٠٠٠ »

مثل هذا الاستبداد بالشئون التى تتعلق بها سلامة الأمة وسلامة الأرواح فيها ــ لم ينفرد به قط أحد فى زماننا هذا ولا فى الأزمنة التى كانت تسمى بعصور الظلمات ، وقد ذكرنا الطاغية « أتيلا » فيجب أن نذكر أنه كان على استبداده المطلق لا يستغنى عن الموافقة والتأييد من رؤساء العشائر وخبراء الحروب ، وغاية ما يقال عن الطبقة الحاكمة فى المجتمعات التى يسميها الشيوعيون بمجتمعات رأس المال أن القابضين على أزمة الثروة الأقتصادية فيها سيستطيعون اشعال الحروب واخمادها باحتيال الحيل من وراء الستار وتدبير المؤمرات ونشر الدعاية والاستيلاء على أقلام الكتاب وألسنة الخطباء وأصوات الانتخاب ، ولا ينفرد واحد منهم بهذه القدرة دون الشركاء الذين يعدون بالمئات ، وقد يعدون بالألوف ٠

فأما أن يكون فرد واحد قادرا على البت فى شئون الحرب والسلم والعدو على الأبواب ، وأن يتحكم فى ذلك بتقديره أو بتخمينه الذى تنحنى له رؤوس القواد والقادة والسفراء والخبراء ، فذلك ما لم يحدث قط فى ظل نظام من نظم الحكم الفرد أو حكم المئات والألوف المتآمرين ٠

وكذلك اهدار الأرواح بمشيئة فرد واحد على هذا المثال • فانه يعز على الحاكم المطلق فى كل زمن فلا يجترىء على اهدار الأرواح سنة بعد سنة بهذه السهولة وبهذه الكثرة وهو آمن على نفسه مغبة هذا الاجتراء •

وأى أجتراء ؟ وأى أرواح ؟ •• أجتراء من لا يقتص فى شهوات بأسه وبطشه ، وأرواح النخبة التى يحق لها أن تلوذ ببعض الحصانة المهيبة لأنها تنوب عن الآمة وباسمها يقضى من يقضى ويتولى الأمر من يتولاه • فكيف تم لستالين فى مجتمع زالت منه رؤوس الأموال أن يستبد هذا الاستبداد بمن يشاء كما يشاء ، وكيف طال به عهد هذا الاستبداد فلم ينزع عنه حتى مات ؟

قيل أنه تحول بالزعامة من سنة أستاذه « لنين » فخرج بها من زعامة جماعية الى زعامة فردية ، فهل يكفى أن يريد فرد بين مائة وخمسين مليونا أن يستبد بهم ليتم له ما يشاء ؟ أليس فى النظام مناعة تقاوم ارادة فرد واحد يناقضه كل مؤمن بذلك النظام ؟

ليس المهم أن الاستبداد حصل لأن ستالين حول الزعامة الجماعية الى زعامة فردية ، ولكن المهم أن نعلم كيف استطاع أن يحوله فتحول ؟ وكيف فقد النظام كل ارادة له أمام ارادة فرد واحد يعتدى عليه ؟ وما هى الوصمة التى يصمون بها مجتمعات رأس المال اذا كان نظام الشيوعية لا يعصم نفسه من فرد واحد يدير لنفسه وسائل هذه السطوة المنكرة فيتم له كل ما أراد من تدبير ؟

على أن القوم يتجاهلون الواقع حين يقولون ان الاستبداد طارىء عريب على مذهبهم يخالف ما شرعه لهم لنين بعد قيام الثورة الشيوعية •

فان هذا الطارىء الغريب على زعمهم عنصر أصيل فى مذهب لنين قبل تلميذه ستالتين ، وأن لنين لهو القائل بصريح العبارة : « ان ديمقراطية الاشتراكية السوفيتية لا تناقض بحال من الأحوال نظام الفرد الواحد الذى يتولى الادارة الدكتاتورية ، فان ارادة الطبقة تنفذ أحيانا على يد الحاكم المطلق الذى يكون أكثر لزوما حين يعمل منفردا •••• ولا تزال هذه الفلسفة مقررة فى مجموعة لنين ، ولا سيما الصفحة الـ (٤٤٤) من المجلد الثلاثين •

★★★

ولسائل أن يسأل : هل زالت هذه الفلسفة بعد زوال ستالين بثلاث سنوات ؟

ان الذين استمعوا الى خطاب الرفيق خروشيشيف قد تقبلوه جميعا وأقروه بغير استثناء وأنهم كانوا على صمتهم عن فضائح ستالين سنوات ثلاثا حتى شاء الرفيق خروشيشيف أن يعلن تلك الفضائح فى مؤتمر الحزب العشرين • فلماذا صمتوا جميعا طوال تلك السنوات الثلاث ؟ ولماذا لم ينكشف هذا السر لأحد قبل الرفيق صاحب الخطاب ؟ لماذا لم يكن من المئات الذين سمعوه أخيرا من عرفه أولا كما عرفه الرفيق الذى واجه به المؤتمر ؟ هل هو سر واحد أو سر اثنين أو سر ألف أو سر مليون وهو بهذه الاستفاضة فى الموضع والموضوع ؟ وماذا نفهم من الموافقة على اتهام ستالين بلا استثناء ؟ هل نفهم أنهم كانوا جميعا يجهلون سياسة ستالين حتى كشفها لهم ـ خليفته فثبت عندهم ما قاله فى جلسة واحدة ثبوت اليقين ؟ هل نفهم أنهم كانوا يعرفونها ولزموا الصمت عنها فلم يجترئوا على ذكرها حتى سمعوها ؟ هل نفهم أن الألوف من أعضاء المؤتمر لم يكن فيهم مائة أو عشرون أو عشرة يقرون سياسة ستالين أو يلتمسون له فيها المعاذير ؟

هل نفهم أن مؤيدى ستالين قد صمتوا اليوم كما صمت مخالفوه أيام الزعامة الفردية ؟

أيا كان المفهوم من موقفهم بالأمس واليوم فهو موقف لا يدل على فارق كبير بين الجهر والكتمان ، أو بين انكار المنكرين ورضوان المرتضين •

ان اعترافات خروشيشيف قد وصفت بأنها وثيقة القرن العشرين لأنها أصابت المذهب الماركسى فى أساسه لا لأنها أصابت ستالين فى سمعة لم يبق

ولا شك أن الضربة التى أصابت سلاح المذهب فى الدعاية لنفسه والحملة على خصومه لا تقل عن هذه الضربة التى أصابته فى أساسه بل فى حجة وجوده ، وهى القضاء على النفوذ المختلس أو المغتصب الذى يعاب على مجتمعات رؤوس الأموال •

لأن سلاح المذهب فى الدعاية لنفسه والحملة على خصومه يتلخص فى احتكار الاخلاص للجماهير والصراحة فى مكاشفتها بالواقع واتهام كل دعوة أخرى كائنة ما كانت بالغش والكذب وخداع الشعب وتضليل العامة واخفاء الحقائق عنها والتمويه عليها بالعقائد الكاذبة والأوهام المزوقة ، لارضائها عما لا يستحق الرضى ومن لا يستحقه من الزعماء والرؤساء •

ومنذ ثلاثين سنة ، بل منذ قيام المذهب فى عهد كارل ماركس ـ ترتفع العقائد من قبل هؤلاء القوم بالافتراء على كرام الناس وأمنائهم واستباحة

أعراضهم وقذفهم بكل زذيلة من رذائل الخيانة والدنس وما اليها من ألوان السباب التى لا مسوغ لها الا أنها أخس ما وجدوه على ألسنة الناس من المثالب والأدناس ٠

فاذا رجعنا الى بطون التواريخ فأين نجد فيها تضليلا للشعوب واخفاء للحقائق يستبيح فى أسوأ الحكومات ما استباحه هؤلاء « المخلصون الصادقون ، فى تمجيد الرجل ـ بل تأليه الرجل الذى علموا من بواطن أمره أنه مجرم سفاح ومدلس كذاب ؟

من سماسرة الزور فى أسوأ عهود الطغيان قد أرتفع بممدوحيه الى حيث رفع القوم معبودهم وهم لا يؤمنون بمعبود ؟

كانوا يقولون عنه أنه « فخر العالم ونوره وضميره » ٠

كانوا يقولون عنه « أنه المحبوب من بين بنى الانسان كافة ٠٠٠ »

كانوا يلقبونه « بالأب الرحيم والمعلم الحكيم » ٠

كان من ألقابه عندهم أنه مشعل النور لهداية النوع الانسانى كله ، وأنه خالق السعادة والنعمة ، وأنه صاحب القلب الرؤوف وصاحب العقل القدير والنسر المحلق فوق سموات النسور » ٠

وكانوا يسجلون الخطب فى عشر من «الاسطوانات » آخرها لا يسمع منها غير دوى الهتاف والتهليل ٠

وكانوا يرفعون له التماثيل الضخام منها تمثال واحد على قناة الفولجا والدون يبلغ وزنه خمسة وثلاثين طنا من النحاس ٠

وكانت تسمى باسمه المدن فى حياته : « ستالنجراد ، وستالنباد ، وستالنبير ٠ وستالينسى ، وستالنكا ، وستالينوجورسك ، وستالنسكويا ويكررون التسمية أحيانا مرتين ٠

وترنموا بالثناء على عبقريته الحربية فقالوا أنها أعظم العبقريات التى تمخضت عنها جميع العصور » ٠

ومات فقالوا فى نعيه « ان أعظم القلوب الانسانية قد نبض نبضته الأخيرة فلا حراك له بعد اليوم » ٠

انهم لم يصمتوا صمت الجبن وصمت الحياء ، ولم يتكلموا فيعتدلوا بعض اعتدال المحرج المضطر أو اعتدال المقتصد المشفق من حساب التاريخ ٠

بل تكلموا فتسابقوا فى التضليل والتمويه والخنوع أيهم يهبط فيها الى الحضيض الذى هو دون كل حضيض ٠

وهؤلاء هم الذين يذكرون محاسنهم ومساوىء خصومهم فلا يقتصدون فى ادعاء الاخلاص كل الاخلاص لأنفسهم وافتراء البطلان كل البطلان على الخصوم ٠

يقول شاعرنا العربى :

وما حسن أن يعذر المرؤ نفسه
وليس له من سائر الناس عاذر

وقد عذر أتباع ستالين أنفسهم بما حسن لديهم وحسن لدى أمثالهم وهو ــ لدى سائر الناس ــ من الأعذار التى تشبه الذنوب ، أو هى أقبح من الذنوب ٠ ولكنهم كيف كان عذرهم فهو عذر يحتاجون اليه لأنهم لا يستطيعون أن ينكروا أنهم أذنبوا وكل ما يستطيعونه أن يقولوا أنهم أذنبوا مضطرين ٠

ذلك عذر المضطرين الى الاعتذار كيفما كانوا وكيفما كان ٠ فما بال قوم لهجوا بمثل ذلك البهتان ولم يخضعوا قط فى بلادهم لذلك الطغيان ؟ ما بال قوم فى البلاد الأجنبية التى لا تخضع لارهاب ستالين قد أطنبوا فى تقديسه والاشادة بحكمه كما أشاد به المعتذرون بالارهاب خوفا على الجلود أو خوفا على الرقاب ٠

ما بال هداة الشعوب فى ايطاليا وفرنسا وانجلترا وما وراء روسيا على الاجمالى قد ذهبوا يضللونها ويخدعونها على وتيرة أولئك المضطرين الى التضليل والخداع ؟

ليس الجهل بالعذر المقبول من أناس يتصدون لقيادة الشعوب ويضطلعون بهدايتها فى ظلمات الجهالة وحمايتها من تغرير الكذبة والمنتهزين ، ومن كان يجهل حالة تتمثل فى مئات الملاين من الخلق وعشرات الملايين من الفراسخ وتمضى عليها خمس وعشرون سنة على نهج واحد فهو آخر من يحق له التصدى للقيادة ، وآخر من يحق له أن يتهم أحد بالتضليل واخفاء الحقائق ، وآخر من تحق له أن يتولى تصحيح الأخطاء والكشف عن بواطن الدعاوى والدعايات ٠

ان هؤلاء « المتطوعين » الخارجين قد نجوا من يد ستالين ولكنهم لم

ينجوا من المأزق الذى ألقاهم فيه خالفاؤه · فلا هم فى الجانب السليم اذا قبلوا اتهام ستالين ولا هم فى الجانب السليم اذا رفضوه ، وكلا الأمرين يحرجهم أمام أتباعهم ويعنتهم فى طلب التفسير والتبرير ، ولو كان هؤلاء الدعاة « المتطوعون » يستحقون الرثاء من انسان لاستحقوا الرثاء وهم يلتوون ذات اليسار وذات اليمين فى المأزق الذى سيقوا اليه بين الفضائح والاعترافات ، ونعنى بذات اليسار وذات اليمين هنا تعبيرها الحرفى الذى لامجاز فيه ، لأنهم يحارون فعلا بين أهل اليسار وأهل اليمين من دعاة السياسة والاجتماع ·

سئل الزعيم الشيوعى الايطالى « تولياتى » عن تلك الاعترافات وعن خضوعه الذليل للرجل الذى تدينه فاضطرب بين الاعتذار بالجهل وبين القاء اللوم على المعترفين وبين ازجاء الثناء لأولئك المعترفين فى عبارة واحدة ·

ويجب أن نعلم أن عذر الجهل من الأعذار التى لا تقبل من « تولياتى » بصفة خاصة ، لأنه كان منفيا من ايطاليا حوالى عشرين سنة الى نهاية الحرب العالمية الثانية قضى معظمها فى البلاد الروسية ، ولأنه زار روسيا لحضور المؤتمر الخامس قبل نيف وثلاثين سنة ، فهو خليق أن يعلم من أحوال ستالين ما يعلمه المقيمون معه بضع سنوات ·

ونقرأ أجوبته على الأسئلة الموجهة اليه فلا تستطيع أن ترسم له فى ذهنك صورة غير صورة المضروب الذى يتلوى ذات اليمين وذات الشمال !

فالذى قاله خلفاء ستالين لا بد أن يكون صحيحا فى جملته ، ولكن لماذا ياترى لم يعلنوه فى حينه ؟ ألا يلامون على الكتمان أو على قلة الاعتدال فى الثناء ؟ بلى ! انهم ملومون ·· كلا ·· انهم غير ملومين ·

فهم ملومون لتغيير الحقيقة ، وهم غير ملومين لأنهم باعلانهم هذه الحقيقة الآن يتهمون أنفسهم كما يتهمون ستالين ·

ومرة أخرى : هل يلامون أو لا يلامون ؟ ·· لك أن تعذرهم وتعفيهم من اللوم لأنهم صدقوا ولو بعد حين ، ولك أن تلومهم ولا تعفيهم من المؤاخذة لأنهم بالغوا فى كشف المساوىء وكان خليقا بهم أن يكشفوها بشىء من التؤدة والأناة مقرونة بالحسنات التى تشفع لصاحبها فيما اقترف من سيئات لاشك فيها · وكبرى تلك الحسنات أنه أقام الصناعة الكبرى فى بلاد كادت أن تخلو من الصناعات ·

وهذه « الملتويات » التى تكررت فى كل جواب انما تصدر لنا الرجفة

فى صورة خاطفة ولا تعطينا تلك الصورة الوافية التى تتمثل فى عشرين شهرا من صحيفة « نوفى أرجومنتى Nuovi Argomentia التى تحدث اليها أو كتب فيها ، ولم نطلع نحن على غير الخلاصة المترجمة الى اللغة الانجليزية ، وفيها من دلائل التخبط ما يكاد يغنى عن البيان الأصيل ٠

وعلى خلاف تولياتى كان زميله نينى Nenni زعيم الجناح الأيسر من الاشتراكيين ــ الايطاليين ــ صريحا بعض الصراحة فى انتقاد السياسة الروسية منذ نيف وعشرين سنة ، مرتابا فى صلاح المجتمع الروسى لاقتداء الاشتراكيين به فى أنحاء العـالم ، ما لم يتبدل بالنظام الذى يسـوده نظاما « ديمقراطيا » يسمح بحرية الرأى والمجاهرة بانتقاد ولاة الأمور ٠

أما الشعبة الفرنسية من الشيوعين فالعجيب أنها اعتمدت على الترجمة الانجليزية لخطاب الرفيق خروشيشيف ولم ترجع الى النص الرسمى منقولا من الروسـية الى الفرنسـية ، وقالت مـع ذلك فى صـحيفة الهيومانتى Humanité أن الخطاب باللغة الانجليزية أضاف الى الاخطاء الجسام التى عرفت عن ستالينطائفة أخرى من أمثال تلك الأخطاء الجسام ولكنها عادت بعد اللف والدوران نقول أن ستالين على الزغـم من هـذه الأخطاء جميعا قد كان له دور « ايجابى » فى التاريخ ، وأن الحزب الفرنسى يأسف للأسلوب الذى اختاره خلفاء ستالين لتقرير تلك الحقائق التى جهلها الحزب زمنا طويلا لأنهـا ليست مما يسـاعد على البحث الطبيعى بين أعضائه ٠٠ !

وينبغى أن نذكر هنا أيضا أن ما يقال عن تولياتى يقال عن الزعيم الشيوعى توريز Thorez الذى هاجر الى روسيا خلال الحرب العالمية وعاش حيث عاش زملاؤه الروس المطالبون اليوم بعلم ما لم يعلمه فى ذلك الجوار « الصريح الأمين ! »

واضطرب أتباع الحزب الانجليز كما اضطرب زملاؤهم الفرنسـيون والايطاليون ٠ فالنموذج الروسى عندهم لا يزال على امتيازه بالقدرة الأولى بين تجارب الشيوعية ، ولكنه يحتاج الى الاصلاح على سـنن الحـرية الديمقراطيـة ، وترى الديلى ويركر Daily Worker أن الصراحة فى انتقاد السياسة السوفيتية واجبة على جميع المخلصين للمبادىء الماركسية ٠

وينادى بمثل هذا الرأى هوارد فاست Howardfast الشيوعى الأمريكى حامل جائزة ستالين ٠٠٠ فانه يأسف لأنه سمع بعد اذاعة الاعترافات بتنفيذ حكم الاعدام فى ثلاثة من المعارضين بدلا من اتبـاع الاعترافات باعلان « الضمان العام » لحرية الآراء ٠

وقد كانت التعليقات على خطاب خروشيشيف فى بلاد الشمال ذبذبة عنيفة بين انكار المساوىء والجرائم والشفاعة لها بما بناه ستالين من صروح العمارة والصناعة التى عاونه عليها خلفاؤه الواجدون عليه ٠

★★★

هذه أمثلة من المعاذير التى لاذ بها أولئك الدعاة الخارجون الذين قضوا ربع قرن يتعبدون فيه لستالين ويجترئون على ناقديه فيتهمونهم بالخداع واخفاء الحقائق عن جمهرة الشعب الساذج البرىء !

كلهم يعتذر بالجهل ولم يكن يجهل ولا يقبل منه أن يجهل ، وكلهم يعتصم بشفاعة الصناعة والعمارة لتبرئة المذهب وتبرئة ستالين ٠٠٠

ولا ندرى ماذا يقول هؤلاء الدعاة اذا اتهموا النازية والفاشية والاستعمار العسكرى فسمعوا عنها دفاعا كهذا الدفاع ؟ ماذا يقولون اذا قيل لهم أن هتلر وموسوليني ورجال الاستعمار اليابانى قد أقاموا لبلادهم عمارة كتلك العمارة وصناعة كتلك الصناعة فى زمن أقل وبثمن من الضحايا دون الثمن الذى بذله ستالين من أرواح ضحاياه وحريه رعاياه ؟

بل ماذا يقولون اذا قيل لهم أن الصناعة الكبرى بحذافيرها انما نشأت فى نشأتها ابتداءا وابتكارا من فعل رؤوس الأموال ولم تقم يومئذ على سبيل التقليد والمحاكاة ؟

لا جواب لأحد على هذه الأسئلة الا أن الذى صنعه ستالين لم يكن مزية تحتاج الى مذهب خاص أو فلسفة خاصة ، ولكنه عمل يتساوى فيه النازيون والفاشيون والمستعمرون وأصحاب رؤوس الأموال وكل من أراد أن يصنع مثل صنيعه بغير حاجة الى هذه الفلسفة التى تنقض فى وطن من الأوطان كل فلسفة قائمة فى سواه ٠ وأهون ما بين النقيضين من تلك الفلسفات تناقض الشيوعية ورأس المال ٠

★★★

ومن البديه أن الضربة التى أصابت المذهب فى أساسه وفى سلاح دعايته لا بد أن يتبعها رد فعل من المقاومة والمكابرة ولا يتبعها بأية حال أن يتخلى القوم عن مذهبهم المتصدع ودعايتهم المغلولة ٠ فانهم يقومون على هذا الأساس الذى تصدع يتماسكون بتماسكه ويسقطون بسقوطه ٠ ولعل المقاومة أو المكابرة فى أمر الدعاية أيسر عليهم فى الدفاع عن المذهب أمام ناقديه أو من يؤمنون به على غير اقتناع عجزا منهم عن استيعاب الحقيقة ٠ فان لجاجة الدعاية فى كل زمن أهون على أصحابها من تثبيت المذاهب وتدعيم أركانها وأسسها بالبرهان والبينة ، وما زال من دأب القوم أن يتجهوا بدعايتهم الى

أناس لا يؤخذون بالاقناع كما يؤخذون بالخداع واثارة الغرائز والأوهام ، ومنهم من لا يزال يسمع الى اليوم أن الكتاب والمفكرين الذين هجروا بلادهم الروسية فرارا من المظالم على عهد ستالين هم الكذبة المدعون وأن اجراء الذل والتلفيق هم المخلصون الصادقون ، وأنه لغير بعيد أن يسمعوا هذا الخزى زمنا ولا يشعروا لهم بكرامة عقلية تأنف من الاصغاء اليه ·

على أن الحقائق لا تفعل فعلها بأذن من يصاب بها ، ولو أمكن اخفاؤها كل الاخفاء لما ظهرت هذه الوثيقة باللسان الروسى قبل كل لسان وهو ذلك اللسان الذى تلجلج نيفا وعشرين سنة بالاطناب فى الثناء على القداسة التى يقال اليوم أنها رجس واختلاق ·

السياسة الوسطى

خير ما يوصف به البرنامج الوطنى الذى أعلنه صاحب الدولة رئيس الوزارة ورئيس الهيئة السعدية أنه هو السياسة الوسطى بين طرفين متناقضين تعالج بهما المشكلات العالمية فى العصر الحاضر ويخصنا نحن المصريين نصيب من تلك المشكلات غير قليل ٠

فهذا البرنامج هو الخطة الوسطى بين الشيوعية من طرف وبين الجمود على النظم العتيقة من طرف آخر ، وكلا الطرفين وبال لا تؤمن عقباه على أمة من الأمم ، ولا على الانسانية بأسرها على تباعد الديار ، واختلاف العناصر والأقوام ٠

الشيوعية مذهب « بهيمى » خبيث ، يفهم بعض الجهلاء خطأ أنه يعنى باصلاح أحوال العمال والفقراء على العموم ٠

ولكنه فى أصله وقواعده يهتم بترويج العقائد المادية قبل اهتمامه بمسائل الاصلاح ٠

ولهذا يحارب الشيوعيون كل اصلاح يأتى من غير طريق الدعوى المادية ، لأن تغليب النزعات المادية هو الباعث المهم وهو الغرض الاصيل ٠

وصاحب هذا المذهب ــ كارل ماركس ــ هو رجل يهودى تحول الى المسيحية ظاهرا ليهدم العالم المسيحى من داخله ، ويهدم معه كل حضارة تدين بعقيدة غير عقائد الماديين ٠

وهو يعلم ان انتشار النزعات المادية بين الامم يسلمها جميعا الى أيدى أبناء قومه اليهود ، لأنهم يقبضون على زمام الشئون المادية فى بقاع العالم ، ويملكون الأمر كله اذا بطل سلطان الأديان والأوطان ٠

ولن ترى أحدا يصغى الى الدعوة الماركسية وهو يخلو من الخسة واللؤم أو من الجهل وضيق النظر ، لأن هذه الدعوة تتجه من النفس الانسانية الى شر ما فيها ، وهو شعور الحقد والحسد والولع بالتخريب والتحطيم ، ومن سلم من هذه الآفات النفسية لم يسلم من آفة الغباء والجهل بحقيقة ما يدعى اليه ٠

ولولا هذا الغباء لما خفى عليهم سر هذه الدعوة التى ينتحلها أصحاب

الأساس ١٩٤٩/١/٢٨ ٠

الملايين من اليهود المرابين وهم أبعد خلق الله عن الرحمة بالفقراء والغيرة على حقوق الاجراء ٠

لكن الدعوة الماركسية ـ كيفا كانت براعة القائمين بها لن يسمع لها صوت ولن يستجاب لها نداء اذا حسنت الاحوال فى الأمة وانتظمت فيها معيشة الطبقات المختلفة على سنة البر والانصاف ، وبرئت من أدواء الشح والجشع والاستئثار ٠

فأكبر نصير للشيوعية هو أكبر خصم لها فى الظاهر ، وهو نظام رأس المال الذى لا يتطور مع تطور الأحوال ، ثم لا يزال فى عمى عن الخطر المحدق به فلا ينزل عن مطمع من مطامعه ، حتى تعصف به العواصف فيذهب هو ومطامعه جميعا مع الرياح ٠

والعبرة بما حدث فى الصين ، فليس للشيوعية نصير أقوى من نظام راس المال الذى يصاب بهذا العمى ويأبى ان يفتح عينيه ٠

وهما طرفان ، ولكنهما على هذا النحو يتلاقيان ، فلم تنجح الشيوعية فى الصين بقوة أنصارها كما نجحت بقوة خصومها ، وهكذا يقال عن نجاحها فى كل مكان ٠

أما الخطة المثلى بين الطرفين المتلاقيين فهى هذه السياسة الوسطى التى أعلنها صاحب الدولة رئيس الوزارة ورئيس الهيئة السعدية ، وتتلخص كلها فى الاصلاح الضرائبى وقيام العلاقة بين طوائف الأمة وطبقاتها على سنة التعاون والانصاف ٠

والمسألة قبل كل شىء مسألة نفسية اجتماعية ، لا يكفى فى علاجها ان نتناولها من جميع وجوهها بحساب الأرقام وقوانين الاقتصاد ٠

والاصلاح الضرائبى مفيد جد الفائدة فى علاج هذه المشكلات من ناحيتها النفسية وناحيتها الاجتماعية ٠

لأنه يبطل الدعاية الكبرى التى يستخدمها الشيوعيون لاستثارة الدهماء وايقاع النفرة والشقاق بين الطبقات ، وهى أدعاؤهم أن الطبقة الحاكمة تشرع لنفسها وتضع القوانين لخدمة مصالحها فلا تقبل ضريبة تكلفها خسارة بعض الأرباح ٠

وهى كذلك تفيد فى علاج المشكلة النفسية والاجتماعية لأنها تخفف من سخط المحرومين ٠

وتفيد فى علاجها لأنها توفر للدولة موارد الانفاق على مشروعات الاصلاح وتحسين المعيشة وترقية التعليم ومكافحة البطالة وتدبير الأعمال ٠

وهى مع هذا جميعه تكفل التقارب بين الطبقات وتزيل الفوارق الشاسعة بين أغنى الأغنياء وأفقر الفقراء ، وتصون للعاملين حريتهم الفردية التى تقضى عليها الشيوعية كل قضاء ·

لا منفذ من المشكلة النفسية الاجتماعية من غير هذا الباب ·

واذا أقترن الاصلاح الضرائبى بتعميم نظام التعاون فى التجارة والزراعة فلا خطر من دعاية المذاهب الهدامة ، ولا خطر من عواقب رأس المال الذى لا تستأثر بخيراته كلها طبقة من الطبقات ·

ولا يكفى أن تعلم الحكومة هذا وتنفرد بعلمه ·

بل هى حقيقة يجب أن يعلمها فى مصر كل غنى وفقير ، ويجب أن يقترن العلم بها بالعمل عليها ·

لأنه عمل أمة تتساند فيه وتتعاون عليه ، وحسب الحكومة من فضل أنها تنادى به وتقوم بقسطها منه ، وهو قسط غير قليل ·

جــــزاء حق

صدرت فى هذه الأيام أحكام زاجرة فى قضايا الشيوعية ·

نقول أنها زاجرة ولا نقول أنها صارمة · فليس فى وسع القــانون أن يكون صارما فى عقاب الدعوة الى الشيوعية ·

لأن الشيوعيه جريمة فى عرف القانون ، ولكنها أكثر من جريمة فى عرف العقل والواقع ·

اذ هى الأساس الذى يقوم عليه تسويغ جميع الجرائم واستباحة جميع الرذائل ، والخروج على جميع الآداب والمعتقدات ·

فليست الآداب والفضائل فى عرف الشيوعيين مزايا انسانية مستفادة من تجارب بنى الانسان فى تاريخهم الطويل ·

ولكنها هى « المصطلحات » التى أتفق عليها نظام رأس المــال لخدمة مآربه وضمان منافعه وتوطيد قواعده ، واستبقاء سلطانه ·

ومن واجب الشيوعيين أن ينتهكوها جميعا لأن الشيوعية لا تقوم لها قائمة ما بقى للمجتمعات الحاضرة ركن قائم ·

يجب فى عرفهم « تمزيق » كل مجتمع واستباحة كل ممنــوع وابتذال كل قداسة والاستخفاف بكل عرف تواضع عليه الناس منذ أقدم عصورهم الى اليوم ·

وهم صريحون فىذلك صراحة لا تحوج أحدا الى التفسير والاستنباط ·

فالشيوعية فى دعوة ماركس وانجلز ثم فى دعوة لينين وأتباعه هى هدم المجتمع وتمزيق أوصاله واستباحة جميع محرماته ، وهى فى النهاية لا تتحقق بالسلم والاقناع بل لا بد لتحقيقها من العنف والتخريب وسفك الدماء

فمن سماحة الديمقراطية أن تعاقب الدعوة الى الشيوعية كأنها جريمة كتلك الجرائم التى تخالف هذا النص أو ذاك من نصوص القانون ·

لأنها فى حقيقتها سلب لمعنى القانون كله ، وايجــاب للاجرام بجميع انواعه ، وليس قصاراها أنها تسويغ لذلك الاجرام ·

الأساس ١٩٤٩/٥/٢٢ ·

وليس فى وسع القانون كما أسلفنا أن يكون صارما فى عقاب الدعوة الى هذه الكارثة الجهنمية ، لأن سجن فرد أو جماعة من الأفراد بضع سنوات أحرى أن يسمى وقاية من وقايات الحيطة للمجتمع باقصاء هؤلاء المفسدين عنه ، ولا يمكن أن يقال أن هذا السجن هو غاية ما يستحقونه من عقاب على جريمة تهدم كل ما بنته الحضارة الانسانية منذ أقدم العصور ٠

★★★

على أن الشيوعيين آخر من يحق لهم أن يستكثروا عقوبة السجن كثرت أو قلت أيامه ٠

لأنهم ــ اذا نجحت دعوتهم ــ لم يكن عالمهم الذى يبشرون به غير سجن يتقيد فيه الناس بقيود السجون جميعا ، أو بما هو شر من قيود السجون ، لأنها قيود ليس لها انتهاء ، ولن يخلو منها مكان ٠

فما هو العالم الذى يريدونه للبشرية اذا نجحوا ؟

عالمهم اذا نجحوا وأفلحوا هو العالم الذى يأكل فيه الانسان ببطاقة ، ويسكن ببطاقة ، ويزاول حرفته ببطاقة ، ويعرف كفاءته للعمل ببطاقة ، ويظل محكوما عليه أن يشتغل ويتبطل ويفكر ويشعر ويعتقد كما يريده مدير السجن أو مديروه ٠

أليس هذا هو عالم الشيوعية اذا أفلح الشيوعيون ؟ فما بالك بعالمهم الموعود اذا أخفقوا فيه ولم يحققوا به كل ما قصدوه ؟

★★★

فالسجن جزاء حق لهؤلاء الذين يسوقون العالم الى سجن لا منطلق منه ولا حرية لأحد من الناس فيه ٠

والعقاب الزاجر وسيلة من الوسائل الفعالة التى تحارب بها الدعوة الى الشيوعية ٠

وليس ينفى هذه الحقيقة أن محاربة الشيوعيه لا تنحصر فى وسيلة واحدة ، ولا يكفى فيها مجرد العقاب والتشريع ٠

نعلم هذا كما يعلمه الذين يبدئون ويعيدون فى تكرير هذه العبارة ، ولكننا نخالفهم كل المخالفة اذا خطر لهم أن أعمال الاصلاح تكف هؤلاء

الدعاة وأمثالهم عن الخطة التى رسموها لأنفسهم وبيتوا النية على المضى فيها الى غايتها القصوى : وهى تقويض المجتمعات الانسانية وقلبها سفلا على علو ورأسا على عقب ٠

فأعمال الاصلاح تهيج هؤلاء الدعاة الى مضاعفة الجهد وتوسيع نطاق « الحركة » الى أبعد الحدود ٠

وما عهدنا لهم فى مصر نشاطا كالنشاط الذى عهدناه لهم أخيرا فى خلال الأسابيع التى تم فيها اقرار الضريبة التصاعدية وتحسين الخبز وتيسير الحصول على السكر والبترول وغيرهما من ضرورات المعيشة ، وتوالت فيها جهود الحكومة فى تفريج أزمة المساكن وتخفيف الأعباء عن أصحاب الموارد المحدودة ٠

فمن الخطأ البعيد أن يظن بدعاة الشيوعية أنهم يرحبون بأعمال الاصلاح ويكفون عن الدعوة كلما وضع مشروع من مشروعاته موضع التنفيذ ٠

هؤلاء الدعاة لا تجدى معهم غير وسيلة واحدة هى الرقابة الدائمة والعقوبة الرادعة ٠

ويجرى الاصلاح مع ذلك فى مجراه ٠ لأنه واجب فى كل زمن لا لأنه وسيلة من وسائل الحيطة لهذه المذاهب التى لا ينقم دعاتها من شىء كما ينقمون من كل اصلاح ٠

الدعوة الى الهدم والفوضى
من وراء ستار

يحسب بعض الناس أن الدعوة الى مذاهب الهدم والفوضى مقصورة على التبشير بمبادئها الصريحة واعلان أغراضها المقررة فى كتبها ومنشوراتها ٠

ومن الواضح أن دعاة الهدم والفوضى لا يبلغون من المجازفة أو من البلاهة هذا المبلغ ٠ لأنهم يدلون على أنفسهم بسهولة ويعرضون أنفسهم للعقاب من أول كلمة اذا صرحوا بدعوتهم وأعلنوا الناس أنهم يدعونهم الى هدم حضارتهم وتقويض مجتمعاتهم ، وينتظرون منهم تلبية ندائهم وتصديقهم بغير تردد ولا مقاومة ٠

فمن الدعوة الى الشيوعية ما هو مستورد كثير المواربة وهو أكبر جوانب الدعوة ٠

ومنها ما هو صريح ظاهر ولكنه يذاع سرا بغير توقيع وبغير اشارة الى مصدر كتابته وترويجه ٠

وأخبث أنواع هذه الدعوة الآثمة هو ترويج الشر والفوضى من طريق الغيرة الكاذبة وتلفيق الحقائق التى تراد بها الأباطيل ٠

وقد ظهرت منها فى مصر وسيلتان تتكرران على الأقلام والأفواه ، وهما استغلال الفقر واستغلال مسألة المعتقلين ٠

فهناك طائفة من أدعياء الكتابة يجعلون من كل حادث سببا الى ذكر الفقر والبكاء على الفقراء ٠

تلميذ يطالب بأجور التعليم فتنقلب المسألة حالا الى كارثة اجتماعية ٠
مريض لا يجد مكانه فى أحد المستشفيات فتنقلب المسألة حالا الى مظهر من مظاهر الظلم الاجتماعى والقسوة المقصودة ٠

متسول فى الطريق ، أو عامل مثقل بتكاليف المعيشة ، أو عريضة تحتاج الى نظر ، أو شيء من هذا القبيل يصل الى علم الكاتب الدعى فلا يلبث أن يتخذه ذريعة لاثارة النفوس وتحريك الحزازات وعرض المجتمع كله فى صورة تحفز الى الهدم والتخريب ٠

أما آلام المحرومين جديرة بالعناية والعطف فهذه حقيقة لم يسبقنا فى مصر صاحب قلم الى تقريرها وتوكيدها فيما كتبناه نثرا أو شعرا منذ نيف وثلاثين سنة ٠
ولكن البدعة حقا هى أمر هؤلاء الكتاب الذين يخدمون الشيوعية بغير

الأساس ١٩/١٠/١٩٤٩ ٠

جدال ويثبتون ذلك على أنفسهم من جهتين ٠

« أولاهما » أنهم لم يهتموا باثارة « مسألة الفقر » الا بعد أن أصبح هذا الموضوع من الموضوعات المأجورة التى تتولى المكافأة عليها هيئات عالمية ترصد الأموال الكثيرة لتحريض الشعوب على الفتنة والانقلاب ٠

والجهة الثانية التى تسجل الشبهة على أولئك الكتاب هى مجاملتهم الدائمة لروسيا الشيوعية بالسكوت عن عيوب نظامها على الأقل ، أن لم يكن بالثناء عليها فى المناسبات السياسية التى تسمح بتمويه الثناء ٠

هؤلاء الذين لم يكتبوا عن الفقر الا بعد أن أصبحت هذه الكتابة موضوعا مأجورا عليه هم موضع الشبهة بل موضع التهمة ، ويؤكد التهمة عليهم أنهم يحملون على كل دولة فى العصر الحاضر ما عدا الدولة الروسيه الشيوعية ٠٠ فأنهم يسكتون عنها ويتحينون الفرص للثناء عليها ٠

مجرمون يعملون على هدم المجتمع مأجورين على هذه الجريمة عن علم بها وسوء نية فى تنفيذها ٠

ومن الحق أن ينالهم العقاب ، ولكنهم لا يقنعون بالنجاة من العذاب وهى كثيرة ، بل يطمعون فى سمعة الخير والاصلاح وشهرة الوطنية والانسانية ٠

وتلك غاية الغايات فى الجرأة على الخداع والاستغفال ٠

وسيلة أخرى من وسائل الدعوة الشيوعية هى استغلال مسألة المعتقلين ٠

هذه المسألة يستغلها أحيانا بعض الأحزاب السياسية ولا يفلحون فى استغلالها ٠

لأن هذه الأحزاب قد اعتقلت قبل الآن أضعاف المعتقلين فى الوقت الحاضر لأسباب لا علاقة لها بالمصلحة الوطنية ٠ أو لوقوع الاعتداء على شخص من الأشخاص لا يبلغ من خطر الاعتداء عليه أن يقاس بخطر الانقلاب الدموى الذى يشمل جميع انحاء البلاد ٠

كذلك لا تفلح المناورات الحزبية فى استغلال مسألة المعتقلين لأن البحث فى شؤون المعتقلين والافراج عن الابرياء منهم عمل من الأعمال التى أهتم بها المسئولون فى ابان حوادث الارهاب والاجرام ، وقد أفرجت اللجنة

المختصة عن طائفة منهم وقررت الافراج عن طائفة أخرى ولا تزال اللجنة المختصة بهذه المسألة فى العهد الحاضر توالى الافراج عن غيرهم فى كل جلسة من جلساتها ورئيسها وزير من السعديين ·

فالدعوة الحزبية لا تفلح فى استغلال مسألة المعتقلين ، ولا حرج على أحد فى طلب التعجيل بالافراج عن كل معتقل بغير جريرة واتخاذ الحيطة لحماية الحرية وحماية الأمن فى وقت واحد ·

ولكن الحرج كل الحرج فى تلك الحملة المتكررة ـ تلك الحملة الحمراء ـ التى تريد أن توهم الناس أن الاعتقال من أساسه لم يكن له مسوغ على الاطلاق ، وأن الواجب المعجل ـ هو الافراج عن كل معتقل بغير استثناء ·

هذه حملة اجرام لا شك فيها لأن الذين يحملونها يعيشون فى مصر ولا يجهلون الحالة التى كان عليها هذا البلد قبل اضطرار الحكومة الى الحيطة والتأهب للطوارىء المنذرة ومنها المظاهرات اليومية والتخريب المتعاقب فى معاهد التعليم ، والأسلحة التى استخدمت فعلا وضبط الكثير منها على أهبة الاستخدام فى مجازر جهنمية تودى بالألوف من الأبرياء وتطيح بكل ما كسبناه من الجهاد فى سبيل الحرية والحضارة ·

فالذين يعيشون فى مصر ويعلمون هذا يتعمدون الهدم والتخريب حين يتجاهلون الحقيقة ويطلقون على المجتمع المصرى كل من كانوا يعبثون فيه بتلك الجرائم من الشيوعيين والصهيونيين والارهابيين ويتساءلون متبالهين فيم الاعتقال ولم لا تعجل الحكومة بالافراج « عنهم جميعا » بغير استثناء ·

حسن أن يصدر المرء فى كتابه عن حب الحرية والانصاف ولكنه استغفال ليس بعده استغفال أن يكون المرء مجرما عاملا على تخريب بلاده ثم يطالب الناس بسمعة الخير والشرف ويحسب عليهم اجرامه فى باب العدل والمروءة ·

ومما نوقنه ولا شك فيه أن أناسا من أدعياء الكتابة فى هذا البلد يستغلون المسائل العامة فى خدمة الشيوعية على هذا النحو ويثبتون ذلك على أنفسهم بماضيهم الذى لم يحفظ لهم قط دليلا من أدلة الخير أو الغيرة على الضعفاء والمظلومين ·

الفهرس

اســـتدراك

وقعت فى الكتاب اخطاء مطبعيـة
من جراء عامل السرعة فى الطبـــع
لا تخفى على فطنـــة القـــارىء
الحصيف · فلزم الاعتذار ·

رقم الايداع بدار الكتب ٣٨٨٣ لسنة ١٩٧٧

منى إليكم ....

.. أيها الشبان المتعلمون

إن الذي يخاطبكم رجل لم يكن من أصحاب القصور ولن يكون

ولم يكن من أصحاب التركات ولن يكون.

ولم يكن من أصحاب الأموال ولن يكون.

وإن الشيوعية لن تضيره من جهة المال، بل لعلها تغدقه

عليه كما تغدقه على دعاتها المأجورين.

إنما تضيره الشيوعية في شئ واحد، وهو كرامة الإنسانية

وليس في العالم شئ بعدها يحرص عليه إنسان.

وهذه هي الوقائع، وهذه هي حقيقة الحال عند هؤلاء

التقدميين، فصدقوها أو لا تصدقوها فما نحن ممن

يستجدي التصديق أو نبسط اليد سائلين ممن نحتاج إليه.

إنما يعنيكم أنتم أن تختاروا بين الآدمية وبين مسخ الآدمية،

وأن تعرفوا أين طريق النكسة وأين طريق الارتقاء منها

ع. م. العقاد

الثمن ستون قرشا